حول رسالة

دستور الأخلاق في القرآن

للدكتور

محمد عبد الله دراز

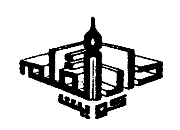
إعداد الشيخ

أحمد مصطفى فضلية

مراجعة وتقديم

أ.د. السيد محمد بدوي

أستاذ علم الاجتماع بجامعة الإسكندرية



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْض﴾

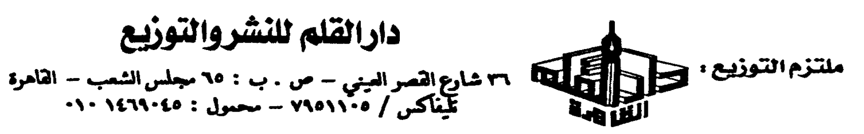
[سورة الرعد الآية رقم ١٧]

حول رسالة

دستور الأخلاق في القرآن

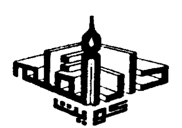
الطبعة الأولى
١٤٢٦ هـ — ٢٠٠٥ م

ملتزم التوزيع :



دار القلم للنشر والتوزيع
٣٦ شارع القصر العيني – ص . ب : ٦٥ مجلس الشعب – القاهرة
تليفاكس / ٧٩٥١١٠٥ – محمول : ٠١٠١٤٦٩٠٤٥

الناشر :



دار القلم للنشر والتوزيع
شارع السور . عمارة السور . الدور الأول شقة ٨ . ص.ب ٢٠١٤٦ الصفاة
هاتف : ٢٤٥٧٤٠٧ / ٢٤٥٨٤٧٨ . فاكس : ٢٤٢٥١٦٠

إهداء

إلى من كان يحمل بين جنبيه

نفحة من روح الله . . .

وقبسًا من نوره الأقدس . . .

إلى روح الإمام المجدد

أستاذ الجيل بحق

محمد عبد الله دراز

وفاءً وحبًّا وتقديرًا



تصدير

بقلم أ. د/ السيد محمد بدوي

إذا استعرضنا كتب الأخلاق التي كتبها الغرب وجدنا فيها ثغرةً كبيرة فهؤلاء الكتاب في تأريخهم للمذاهب الأخلاقية ، قد عرضوا لهذه المذاهب في العصور اليونانية القديمة، ثم في الديانتين اليهودية، والمسيحية، وقفزوا منها فجأة إلى المذاهب الأخلاقية في العصور الحديثة في أورُبا ، أي منذ عصر النهضة إلى وقتنا الحاضر، بدون أن يعُرجوا في قليل أو كثير على ما يتصل بالقانون الأخلاقي في الإسلام. ومع ذلك فإن ما جاء به القرآن في مجال الأخلاق ذو قيمة عظيمة، لا بالنسبة للحياة العملية للمسلمين أنفسهم فحسب، بل بالنسبة لأبناء البشر جميعا، ومعرفة القانون الأخلاقي كما جاء به القرآن يكمل النقص في تاريخ المذاهب الأخلاقية، ويفتح آفاقًا جديدة في دراسة المشكلة الاخلاقية ذاتها، وفي حل كثير من المسائل والصُعوبات التي تثيرها .

وإذا كان بعض الكتاب قد تعرض في كتاباته عن النظم الإسلامية بوجه عام لسرد بعض القواعد الأخلاقية التي تستخلص من القرآن ومن التشريع الإسلامي فقد كان يعالج هذه المسائل في عُجالة دون أن يكون فيما يسرده ما يشفي غلة الباحث الذي يريد أن يتعمق في الدراسة العلمية، و لم يتعرض أحدٌ فيما نعلم لبحث الجانب النظري في المسألة و لم يحاول استخلاص المبادئ العامة التى تُستمد من القرآن وكل ما فعله هؤلاء الكتاب أو المستشرقون هو جمع بعض الآيات القرآنية التى تحتوي على قواعد للسلوك الأخلاقي وترجمتها.

أما المفكرون من المسلمين فقد جروا في كتاباتهم عن الأخلاق إما على سرد بعض

النصائح العلمية التي تهدف إلى تقويم أخلاق الشباب، وإما على وصف طبيعة النفس الإنسانية وقواها والخلوص من ذلك إلى تعريف الفضيلة وتقسيم الفضائل إلى أنواعها الهامة كلّ بحسب وجهة نظره، ومن أشهر المؤلفات التي تسير على هذا النهج كتاب ابن مسكويه «تهذيب الأخلاق» وقد يجمع الكاتب أحيانًا بين الأغراض العملية والتحليل النظري كما نشاهده كثيرًا في كتب الغزالي، وخاصةً الجامع «إحياء علوم الدين» كما حاول الغزالي في مؤلف آخر هو «جواهر القرآن» أن يحلل مادة القرآن، ويصنف فيها قسمين كبيرين في مجال الأخلاق! أحدهما يتصل بالمعرفة (أي بالناحية النظرية» والآخر يتصل بالسلوك (أي بالناحية العملية». وخص بالقسم الأول ٧٦٣ آية وهي تمثل ما يقرب من ربع آيات القرآن. أما الآيات الباقية فهي لا تتصل في نظره إلا بمسائل فرعية أو مكملة .

هذا الجهد الذي لا يُنكر والذي يقوم على الرغبة في التصنيف المنهجي قد وضع أساسًا صالحًا للدراسة العلمية. ولكنه لسوء الحظ لم يجد فيما مضى من يتابعه ليقيم صرح البناء كاملاً، ويبرز الفلسفة الأخلاقية القرآنية في صورة مذهبٍ كامل. لم يحاول أحدٌ إذن لا من فلاسفة الغرب ولا من فلاسفة الشرق أن يستخلص القانون الأخلاقي كاملاً من القرآن، وإذا قلنا القانون الأخلاقي فإن هذا الاصطلاح يعني عند فلاسفة الأخلاق الأسس والمبادئ النظرية العامة التي تكون بمثابة إطار تتحقق في داخله وحدة التفاصيل وانسجامها .

وفي العقد الأخير من النصف الأول من القرن العشرين تصدى لهذا العمل الكبير، عالمٌ جليل من علماء الأزهر الشريف، في رسالته القيمة التي نال بها درجة الدكتوراه من السوربون وعنوانها «دستور الأخلاق في القرآن» والذي يسرنا اليوم أن نقدم لهذه الدراسات المفيدة حول هذه الرسالة العظيمة، والتي قام بإعدادها واحدٌ من أبناء الأزهر المحبين لتراث الدكتور دراز، والذي ندب نفسه لإخراج المطوي من أوراق الشيخ،

وسـرَّنا أن يكون هذا الإبن من قرية الدكتور دراز، وقد اتصل بـي منذ سنين عددًا، وظل يبحث وينقب حتى وصل إلى عمل كتاب شامل عن حياة الشيخ وجهوده في خدمة الإسلام.

والذي نأمل أن يخرج لجمهرة الباحثين، وقراء العربية في أقرب وقت إن شاء الله ـ لقد طلب مني الشيخ أحمد مصطفى فضلية كتابه مقدمة لبحثه هذا حول الرسالة، وإني مع تقدم السن، وكلل الذهن، ووهن العظم كتبت هذه الكلمات والتي ربما كتبتها منذ عشرات السنين[1] .

فقد عشت مع هذه الرسالة الجامعية مرتين: مرةً أثناء تأليفها، ومرةً أثناء ترجمتها. أما عن تأليفها فقد كان ذلك في أوائل الأربعينات، وكانت الحرب العالمية الثانية قد بدأت تشتد وطأتها في أورُبا بعد هزيمة فرنسا وصحوة الحلفاء لوقف طغيان النازي.ـ وكنت مع الطلبة العرب في باريس نلتمس في رحاب الأستاذ الجليل ما نحتاج إليه من رعاية في وقت الشدة، وكان هو يجمعنا في منزله في المناسبات الدينية والقومية ليشعرنا بما افتقدناه من جوٍ عائلي بسبب بُعدنا عن الأوطان، وكنا نجد عنده كرم الضيافة العربية، ونستمتع بأحاديثه ومناقشاته في شئون الدين والعلم والسياسة، وكان رحمه الله ـ لا يضيق بما نثيره من آراء متطرفة أحيانا، بل يفندها بروح العالم المستنير، وفي سماحة ورحابة صدر، ولا يزال بنا حتى يُقنعنا بوجهة نظره المستندة إلى البرهان العلمي والمنطقي.

ثم حظيت بشرف مصاهرته، فازدادت صلتي به وثوقًا، ولمست عن كثب الجهود والخطط التي رسمها منذ أمد بعيد لنشر رسالة الإسلام في العالم الغربي فعرفت أنه كان

---

(١) راجع كتابنا [الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع]، ومقدمتي للرسالة . ومقدمتي للكتاب (في الدين والأخلاق والقومية) للدكتور دراز.

قـد أتقن الفرنسية إبان طلبـه للعلم في الأزهر الشـريف استعدادًا لذلك اليوم الذي يقوم فيه بواجبه العلمي والديني، فما إن وطأت قدمه أرض فرنسا حتى بدأ في تحقيق خطته، ولم ينتهج الطريـق السـهلة التى انتهجها غـيره بالشـروع في تحضـير رسـالة الدكتوراة رأسًا، بـل فضل أن يسير في الطريق الأكاديمي من بدايتـه، ويفعل ما يفعله طُلاب العلم من الفرنسـيين لدرجة الليسانس ودرس الفلسفة والمنطق، والأخلاق وعلم النفس وعلم الاجتمـاع على أيدي أسـاتذة السـوربون والكوليج دي فرانس مـن أمثال (ماسـينون، ليفى بروفتسـال، لوسـن، فـالون، فوكونيه)، ونجـد أثر هذا التكوين العلمي الرصين في رسالته حيث لم يكتف بتوضيح وجهة النظر الإسلامية، بل كان يُجليها بمقارنتها بآراء المفكرين والفلاسـفة، وكـان لا يـترك مناسـبةً إلا اسـتعرض فيهـا رأي عـالم من علماء الغرب، أو نظرية من النظريـات السائدة، ثم يبين مـا في هذه النظرية أو في ذلك الرأى من قصورٍ أو خطأ، ويعقب ذلك ببيان كمال النظرية الأخلاقية في القرآن الكريم[1] .

وقد استغرقت كتابـة هذه الرسـالة العظيمـة ما يقرب مـن ست سـنوات ويبدو أن العالم الجليل الدكتور دراز قد شـرع فيها في عام ١٩٤١م، بعد أن انتهـت حملة فرنسا وعـاد إلى بـاريس بعـد سـنة أمضاهـا في بوردو (بجنـوب غرب فرنسـا) حين اقـتربت الجيوش النازية مـن العاصمة الفرنسية، وأصبح سُـقوطها وشـيكا، وإذا أضفنا إلى هذه السنوات السـت خمس سنوات قبلها أمضاهـا الأستاذ في التعرف على مناهج العلوم في الغرب وتحضـير درجـة الليسـانس ، فإنـه يكون قد أمضـى ما بـين إعداد العدة وتنفيذ مشـروعه حوالي أحد عشر عامًا. ولم تكن هذه بالفترة الطويلة إذا قدرنا ما اكتنفها من سـنوات الحرب العصيبـة، وما أثارتـه هذه الحـرب من مشـكلات ماديـة ونفسـية كان الأستاذ يتحمل عبئها، ويحاول إبعادها عن أسرته ا لكبيرة التي صحبته في غُربته. وأذكر أنـه اضطر ـ أثناء هجـوم الحلفاء لتحرير فرنسـا ـ لقضـاء أيام طويلـة مع أسـرته في مخبأ

(١) عن مقدمتنا للرسالة.

تحت الأرض، كان يجمع فيه أوراقه التي يحرص عليها ويشتغل وسط القنابل التي كانت تدوي من حوله، على ضوء شمعة أو مصباح خافت، وتمت مناقشة الرسالة أمام لجنة مكونة من خمسة من أساتذة السوربون والكوليج دي فرانس في ١٥ / ١٢ / ١٩٤٧م. إنها قصة كفاح عظيمة لرجل عظيم ـ احتضن القرآن قلبه، فقد عرفت عنه أنه كان يقرأ كل يوم سدس القرآن وما ترك هذه العبادة يومًا واحدًا حتى في إبان محنة الحرب التي عاصرها في فرنسا[١].

وماكنت تراه إذا اختلى بنفسه إلا مُصليًا أو قارئًا للقرآن .

وإذا كانت إقامته الطويلة في الخارج قد مكنته من علوم الغرب ومعارفه ومناهج البحث العلمي ـ فإنها مع ذلك لم تصرفه لحظةً واحدةً عن دينه وإيمانه و لم تغير من خُلقه، بل قد ازداد استمساكًا بدينه وتشددًا فيه فزاد بذلك وقارًا وجلالاً .

ذلكم هو العالم الجليل المرحوم الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز، آتاه الله تعالى الحظ الأوفر في علوم الإسلام فكان فيها العَلَم الذي يُشار إليه، وأوتيَ مثل هذا الحظ من علم أورُبا، ولكن لم يبهره زخرف المدنية الغربية عن الثروة الروحية التي اشتملت عليها الحقائق الإسلامية .

واليوم من حق شباب الإسلام العائد إلى دينه عقيدةً وشريعة، نظام حياة ومنهج مجتمع. أن نقدم له هذا التعريف بكنز من كنوز المكتبة القرآنية ليقوي في أنفسهم الإيمان، ويدعم في ضميرهم أسس الأخلاق، وتشحذ إرادتهم للقيام بجلائل الأعمال. ومن أجدر بأن نأخذ عنه هذه النظريات التربوية الجليلة. والأفكار الحية النابضة والمثل العليا الخالدة من أستاذ جليل من السلف الصالح كرس حياته للدرس والتدريس، وجمع في توازن عجيب بين علوم الدين ومعارف الدنيا، واستطاع أن يجمع هذه العلوم

(١) عن مقدمتنا للرسالة.

والمعارف في ذهنه الجبار وعقله المُتفتح المستنير، ويخرجها لنا مُصفاة من الشوائب. محلاةً بذلك الأسلوب الرصين الذي يبرز الفكرة في سهولة ويسر، فتأخذ طريقها إلى العقول والأفئدة(١) .

وأشكر للابن العزيز فضيلة الشيخ أحمد مصطفى فضلية جهده المشكور في جمع مادة هذا البحث وترتيبها على هذا النحو لينتفع بها الباحثين وجمهور القراء .

أ. د. السيد محمد بدوي
أستاذ علم الاجتماع بجامعة الإسكندرية
وعميد معهد الخدمة الاجتماعية

تحريرًا في ٢٦ محرم ١٤٢٢هـ
٢٠ إبريل ٢٠٠١م
سان استيفانو ـ الإسكندرية

---

(١) عن تقديمنا لكتاب الدكتور دراز [في الدين والأخلاق والقومية] نشر المكتب الفني للنشر بالقاهرة، ١٩٥٨م.

مقدمة البحث

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ومن والاه.. وبعد

فقد حدد رسول الله ﷺ الغاية الأولى من بعثته بقوله.. «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» فكأن رسول الله ﷺ ما جاء إلا لتزكية الأخلاق وتقويم السلوك ، كما أن العبادة في الإسلام تهدف إلى بناء الأخلاق بناءً متينًا، فالصلاة مثلاً تنهى عن الفحشاء والمنكر، والزكاة تغرس الحنان والرحمة وتقوي العلاقات بين أبناء الأمة وتسمو بهم عن الشح والإمساك ، والصوم يقوي الإرادة ويعلم الصبر ويهذب النفس ويحصن الإنسان وكذا سائر العبادات تهدف إلى تزكية الأخلاق وتطهيرها، والمتأمل في آيات القرآن الكريم وسنة الرسول العظيم - ﷺ - يجد علاقة قوية بين الإيمان والأخلاق، فقوة الإيمان سبيلٌ إلى قوة الأخلاق وحسنها، وضعف الإيمان طريقٌ إلى ضعف الأخلاق وسوئها .

يقول الرسول ﷺ «الحياءُ والإيمان قُرناء جميعًا فإذا رُفع أحدهما رُفع الآخر» ويقول عليه الصلاة والسلام : « **والله لا يؤمن وا لله لا يؤمن وا لله لا يؤمن . قيل** من يارسول الله؟ قال: **من لا يأمن جاره بوائقه**»[1] وقال ﷺ : حين سُئل أيُّ المؤمنين أكمل إيمانًا قال: **أحسنهم خُلقًا**»[2] .

فليست الأخلاق في حياة الناس شيئًا ثانويًا، بل هي من أهم الأسس التى يقوم عليها بناء المجتمع الفاضل، والمتأمل في الأسباب التى تُشكل أزمة العالم اليوم بشقيه

---

(١) البخاري عن أبى شريح

ك / لأدب . ب / إثم من لا يأمن جاره بوايقه .

(٢) الترمذي عن أبى هريرة

ك / الرضاع ب / ما جاء في حق المرءة على زوجها .

يرى أن أزمة الاخلاق تتصدر هذه الأسباب فهي كارثة الكوارث، ومصيبة المصائب، فالمجتمعات الغربيـة تعانى مـن فسـاد الأخلاق وانحطاطهـا، وقد اعـترف بذلـك كبار علمائهم، يقول ريتشـارد ليفنجستون وكيل جامعة أكسفورد في كتابه «التربية لعالم حائر»: (لو أننا كنا نبحث عن كلمة براقة تصف عصرنا هذا لطرأت على أذهاننا عبارات عدة ، فقد نطلق عليه عصر العلوم، أو عصر الثورة الاجتماعية أو العصر الذي خلا من المعايير الخلقية غير أن اسمًا من هذه الأسماء لم يبين حقيقة العصر كاملةً أو ينصفه إنصافًا تامًا على أن الاسم الأخير أجدر من غيره بعض الشيء بأن يُوضع موضع الاعتبار» ثم يقول في موطن آخر من كتابه : (لكنك إذا انتقلت من ميدان العلوم إلى ميدان الأخلاق والدين رأيت نفسك في أرض قَفْر تسودها المعتقدات المزعزعة، والمعايير الخلقية المحطمة، حيث لا يزال اللصوص ينهبون ويسلبون .

ويقول محمد أسد في كتابه «الإسلام على مُفترق الطُرق»

إن العفاف والإحصان يصبحان مع الأيام خبرًا ماضيًا في الغرب الحديث لأنهما مفروضان من طريق الخُلق فحسب، وليس للإعتبارات الخُلقية أثرٌ مباشرٌ محسوس في رفاهية الشعب المادية .

وهكذا نجد أن الفضائل الخلقية القديمة التى يُؤيدها الدين أخذت تخلى مكانها بالتدريج للفضائل الغربية التى تدعو إلى حرية فردية للجسد البشري غير مقيدة، أما ضبط النفس ومراقبة الملذات الجنسية فإنهما يفقدان أهميتهما بسرعة .

ولايحسبن القارئ أن أزمة الأخلاق في الغرب كانت ثم زالت، والحق أن الأخلاق تزداد سوءًا يومًا بعد يوم، وغير خافٍ عنا ما يُعانيه أبناء المجتمع الأوربي من إنهيار ودمار وعلى الجانب الآخر وفي العالم الإسلامي فشت رذائل وآفات خطيرة روج لها أذناب الاستعمار والمأجورون والمنتفعون من اللاهثين وراء الغرب، ولا يخفى واقع

الإعلام المسموع والمقروء والمشاهد وما يبثه من رذائل بين أفراد الأمة .

فالإسلام دين الصدق ولكن الكذب فشى بيننا .

والإسلام دين الجمال ولكن القبح سمة بعض سلوكياتنا .

والإسلام دين النظام ولكن العفوية والإرتجالية مازالت تصاحب أعمالنا.

والإسلام دين العلم ولكن الأمة لازالت أمية لاتكتب ولا تحسب .

وإذا كان هذا هو واقع العالم الذي نعيش فيه من غير تهوين أو تهويل كان لابد من محاولة علاجه وإصلاح الخلل وتقويم العِوَج، وهذا ما اهتم له ونهض به العَلَمَ الشامخ، الاستاذ الجليل، الإمام المجدد والباحث المنهجي المنفرد محمد عبد ا لله دراز في رسالته القيمة « دستور الأخلاق في القرآن» ولما كانت هذه الرسالة العلمية الفريدة قد نالت تقدير كبار العلماء والدعاة والباحثين فقد رأيت من الواجب أن أقدم هذا البحث المتواضع للتعريف بها خاصة وأنا أشعر بمؤامرة إزاء تراث الأفذاذ من عُلمائنا ودُعاتنا، وهي في نظري جزءٌ من المؤامرة على الإسلام والمسلمين.

وهذا ما أكده شيخنا العلامة الدكتور عبد العظيم المطعني في ندوة «عن الدكتور محمد عبد الله دراز وجهاده العلمي» إذ يقول :

«إن المحنة التي يمر بها الإعلام في المرحلة الراهنة والتي لا تصب في مصلحة الإسلام والمسلمين . حيث يجري «تلميع» غير المستحقين ، والتعتيم على الأعلام الكبار الذين قدموا علمهم وجهدهم وحياتهم خدمة للإسلام.

والإمام المجدد الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله قد ناله شيءٌ غير قليل من هذا

التعتيم رغم جهاده العلمي وعطائه الفكري الكبير حيث اختار الطريق الصعب وسار في حياته العلمية في مجاهيل وطرق وعرة ما خطا فيها أزهريٌ قبله خطوة واحدة.

فنجح الرجل في هزيمة الفلسفة الغربية في عُقر دارها منذ نصف قرن. في الوقت الذي غلبت فيه على الناس ظاهرة النقل والتقليد وسياسة (القص واللزق) سعيًا وراء تضخيم الأوراق والرسائل[1] .

ومن هنا فقد جاء تراث الشيخ رحمه الله مُتسمًا بنفاذ النظرة وجلاء البصيرة، وعمق التحليل ، وسلامة العرض ويُعجب الناظر في هذا التراث العظيم تنوع وتعدد ميادينه ويرى مع ذلك كله قوته واقتداره على هضم وفهم وتحليل أصعب مسائل العلم.

عملي في تراث الشيخ :

وتبدأ قصتي مع تراث الدكتور دراز حين تعرفت على اسمه ولأول مرة في قاعات جامعة الأزهر المعمور واستمعت من شيوخي الأجلاء الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد والدكتور عبد الفتاح عاشور والدكتور عبد الحي الفرماوي وغيرهم من شيوخي بارك الله فيهم وهم يذكرون اسمه وآراءه بإكبار وتقدير حينئذ رغبت في معرفة الشيخ خاصة وهو ابن قريتي المباركة «محلة دياي» ولما بدأت أسأل عارفيه من شيوخ القرية وأقاربه وأولاده طرأت فكرة جمع تراث الشيخ ونشره .

ويعلم الله أنني أتهيب من الخوض فيه فلست أهلاً لذلك وكنت حينما أنظر إلى صورة الشيخ وصورة والده العلامة المحقق الشيخ عبد الله دراز وأطالع تراث الإبن العالم المدقق والباحث المنهجي المتفرد تبهرني صورته ويشدني أسلوبه ويستولي على عقلي وقلبي وأردد في نفسي ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[2] .

---

(١) جريدة آفاق عربية العدد (٣٩٨) ١٦ ذو القعدة ١٤١٩هـ .

(٢) البقرة : ٢٦٩ .

ومن ذلك الحين وأنا جادٌّ في جمع تراث الشيخ من مقالات وبحوث التي أصبحت شغلي الشاغل ومتعتي الخاصة التي تهون في سبيلها كل المتاعب والأسفار.

وشاء الله تعالى أن التقي بتجليّ شيخنا المباركين سعادة السفير فتحي محمد عبدالله دراز والأستاذ الدكتور سعيد محمد عبد الله دراز ففتحا أمامي مكتبة الشيخ، وياها من فرصة مباركة هيأ الله أسبابها فوجدت تُراثًا مخطوطًا نافعًا فأخذته وقرأته وقمت بتصويره وترتيبه وقلت في نفسي لو كانت هذه المخطوطات والأضابير والرسائل عند غيري من الباحثين والمهتمين لوددت أن تكون بين يديّ ، فلم لا أحب لغيري ما أحب لنفسي وقد قال رسولنا ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1].

فلأتحقق بالإيمان فقد ينتفع بها خلقٌ كثير بل قد يكون إنتفاعهم أكثر مني «فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أوعَى من سَامِعٍ»[2].

وحملت كل ما جمعت من تراث الشيخ العلامة إلى شيخي الأستاذ الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد فأيد وشجع وقدم النصح والتوجيه زاده الله من فضله وبارك في عمره المديد زادًا وعتادًا للإسلام والمسلمين. هذا ولا أزعم أنني وقفت أمام تراث الشيخ الإمام مدققًا ومحققًا ومحللاً فذاك أثرٌ نهض له كبار الدارسين والمحققين في الشرق والغرب، وإنما انصب اهتمامي على الجمع والترتيب والتنسيق وهذا لونٌ من التأليف .

يقول العلامة الشيخ «شمس الدين البابلي» : لا يؤلف أحدٌ كتابًا إلا في أحد أقسام سبعة ولا يمكن التأليف في غيرها . وهي:

---

(١) البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

ك/ الإيمان. ب/ من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (١٢) ومسلم عن أنس بن مالك.

ك/ الإيمان. ب/ الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب (٦٤).

(٢) البخاري عن أبي بكرة. ك/ الحج. ب/ الخطبة أيام منى (١٦٥٢).

١- إما أن يؤلف من شيء لم يُسبق إليه يخترعه .

٢- أو شيءٌ ناقصٌ يتممه .

٣- أو شيءٌ مستغلقٌ يشرحه .

٤- أو طويلٌ يختصره دون أن يخل بشيء من معانيه .

٥- أو شيءٌ مختلطٌ يرتبه .

٦- أو شيءٌ أخطأ فيه مصنفه يبينه .

٧- أو شيءٌ مفرقٌ يجمعه[١] .

والذي أزعمه أن عملي في تراث الشيخ من النوع الأخير وقد قمت بإعداده على هذا النحو الآتي:

١- دراسات الشيخ - رحمه الله - المخطوطة التى لم يسبق نشرها وبحوثه العلمية التي نُشرت في صحفٍ ومجلات متفرقة ومتناثرة اقتضت جُهدًا طويلاً في جمعها ومراجعتها وتنسيقها وقد جعلت عنوانه: «حصاد قلم» نشر دار القلم - الكويت .

٢- رسائل الشيخ إلى أعلام الأمة، أو إخوانه من العلماء، أو أصدقائه من جمهور المسلمين.. وقد وقفت في هذا على رسائل مخطوطة ونافعة جدًا وقد أفردتها في كتاب مستقل سينشر إن شاء الله تحت عنوان : (رسائلٌ لها تاريخ) نشر دار القلم - الكويت.

٣- أحاديث الشيخ الإذاعية نقدمها لشباب هذا الجيل الذين لم تتح لهم فرصة الإستمتاع بها مذاعةً على الأثير فمن حق شباب الصحوة المباركة وهم ذخيرة الأمة وأملها - أن نزودهم بهذه الأحاديث الفريدة التى تقوي في أنفسهم الإيمان، وتدعم في ضميرهم أسس الأخلاق، وتشحذ إرادتهم للقيام بجلائل الأعمال. وقد قمت بجمع

(١) انظر مقدمة الدكتور محمد عبد الله دراز لكتابه (دستور الأخلاق في القرآن) .

المخطوط منها ، والذي سبق نشره في مطلع الخمسينات من القرن العشرين في كتاب جامع أسميته (زاد المسلم للدين والحياة) .

٤- دراسة وترجمة حياة الشيخ . ووقفت على أشياء من تاريخ الشيخ ورسائله لم يسبق نشرها .

وهذا سينشر إن شاء الله في كتاب مستقل جعلت عنوانه : (الدكتور محمد عبد الله دراز سيرة وفكر) وقد تناولت جُهود الشيخ العلمية بالتفصيل والدراسة الواسعة .

٥- حول رسالة (دستور الأخلاق في القرآن).

وهي دراساتٌ حول رسالته الفذة لنيل درجة الدكتوراه من السوربون وهي التي يُطالعها القارئ بين دفتي هذا الكتاب المتواضع .

ويعتقد أستاذنا الكبير محمد عبد الله السمان أن هذه الرسالة ظُلمت مرتين،

الأولى: حيث ظلت حبيسة النص الفرنسي زهاء خمسة وعشرين عامًا.

والثانية: بعد أن عربها الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين حيث قصرت جامعاتنا ومؤسساتنا عن الانتفاع المنشود منها .

ويمكن إجمال بواعث كتابة الدكتور لهذه الرسالة العظيمة في عدة نقاط هي:

١- إغفال علماء الأخلاق الغربيين للأخلاق القرآنية . وهذا ظلمٌ بينٌ وتجاهلٌ للحقائق الثابتة .

٢- أن بعض المحاولات التي قصدت بيان الأخلاق في القرآن كانت محدودة، وجاءت غير مطابقة للنظرية الأخلاقية في القرآن .

٣- تعريف المجتمع الأوربي الوجه الحقيقي للأخلاق في القرآن .

٤- تقصير الباحثين المسلمين في بيان واستخراج النظرية الأخلاقية في القرآن الكريم.

والحق أن رسـالة دستور الأخلاق في القرآن «كتبها عـالمٌ جليلٌ من أكـابر علماء الإسلام في العصر الحديث، وأثنت عليها لجنـة المناقشة لدرجة قول أحد المناقشين (إن الرسـالة تـبرز أن القرآن كتـابٌ سماويٌ لا يتحيز لأمـة ولا لدين خـاص وإنما هو دعوةٌ عالميةٌ وديانـةٌ للبشر كافة.. إن هذا الكلام مقنعٌ لدرجـة أخشى معها التأثير على نفسية المسـتمعين فتحولهم عن دينهـم ثم توجـه إلى الشـيخ قائلاً : (إنـك ولا شـك تريد أن تجذبنا إلى الدين الإسلامي . أليس كذلك؟) [١].

ولذا تنافسـت على اقتنائهـا مكتبات العـالم، وبرغم كل ما سبق، مـا زالت مجهولة عنـد كثير من شـباب الإسـلام، فكـان هذا البحث ليعـرّف شـبابنا بهـا، ويدلهم عليها عسـى أن يسـتفيدوا منهـا فتزكو أخلاقهم وتصفـو نُفوسـهم، ويدعون إلى دينهم على بصيرة.

هذا وسوف يدور البحث حول العناصر الآتية :

- قالوا عن الرسالة .
- تمهيد بين يدي الرسالة .
- حول رحلته العلمية إلى فرنسا وإعداده للرسالة .
- سر اهتمام الدكتور دراز بالإعجاز الخلقي .
- الحاجة إلى الرسالة .
- حاجة المجتمع الغربي.
- حاجة المجتمع الإسلامي.
- الرسالة عرضٌ وتحليل.

(١) نقـلاً عن حوار صحفي. أجراه الصحفي عصمـت عبد الجواد بعد عودة الدكتـور / دراز من بـاريس (بدون تاريخ) .

- نتائجٌ وحقائقُ أبرزتها الرسالة .
- قصة الترجمة .
- ترجمة مختصر الرسالة .
- طبعات الرسالة .
- بيان توزيع الرسالة في المكتبات الغربية .
- تقاريظ الرسالة .

فإن استطاع هذا البحث أن يُلفت أنظار شبابنا وأبنائنا من جيل الصحوة المباركة لهذا العمل العلمي الممتاز الذي يعد سببًا مباشرًا وقويًا في إنتشار الإسلام بين الفرنسيين وأسلم بسببه خلقٌ كثير، ولا يزال يؤدى رسالة الإعلام الإسلامي في التعريف بالإسلام هناك فقد أدى ما رجوت ودعوت الله له .

وعلى الله قصد السبيل.

و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

كتبه

الفقير إلى عفو الله تعالى

أبو عبد الرحمن

أحمد مصطفى عبد العزيز فضلية

شيخ معهد محلة دياي الأزهري

الفصل الأول

بين يديّ الرسالة

١- مدخلٌ إلى الرسالة .

٢- العصر الذي كُتبت فيه الرسالة .

٣- حول رحلته العلمية إلى فرنسا.

٤- إعداده لرسالة الدكتوراه.

٥- حاجة المجتمع الإسلامي إلى الرسالة .

٦- مكانة دستور الأخلاق في الفكر الإعلامي المعاصر.

مدخل إلى الرسالة

يهتم الباحثون في تاريخ المجتمعات البشرية بدراسة الأشخاص البارزين، والأفذاذ المصلحين الذين ربطوا حياة المجتمع بحياتهم، وبثوا فيه من رُوحهم، وعزمهم، وتفكيرهم، وقوتهم، ونشاطهم. وهم يقولون: إن من أفراد المجتمع من يُعدون كالأصفار على يسار الأعداد، فهي لا تفيدها زيادةً ولا نقصًا، ولا تؤثر فيها ارتفاعًا أو انخفاضًا، وهي النظرية التي دعم قواعدها علماء الاجتماع وعلماء التاريخ والتطور والارتقاء، يمكننا أن نجعلها أساسًا في تاريخ العلوم والفنون والمخترعات والمكتشفات ، بل يمكن اعتبارها أساسًا في كل مرفق من مرافق الحياة. فكل ناحية من نواحي بناء المجتمع ينبت فيها أفراد يُؤثرون تأثيرًا واضحًا في علم من العلوم أو في مخترع من المخترعات فينسب ذلك العلم إليهم ويشتهر بهم[1] .

والدكتور محمد عبد الله دراز ممن ينطبق عليهم القاعدة إذ نُسب إليه علمٌ من العلوم لم يُوَصَّل إلا على يديه، وبرز إلى الساحة العلمية في العقد الخامس من القرن الماضي وأعني بهذا العلم «علم الأخلاق القرآني» كان ذلك حين قصد الدكتور دراز من الأزهر إلى السوربون ليعد رسالته عن الأخلاق في القرآن يعرف جيدًا ما هي الوجهة وما هو الهدف، وما هي الفوارق العميقة بين مفاهيم الفلسفات ومفهوم الإسلام، ويعرف أيضًا كيف يقدم وجهة نظر الإسلام في مُرونةٍ وذكاء حتى لا يصطدم بمعارضيه ، ومن أجل ذلك أمضى إثنى عشر عامًا (مايو ١٩٣٧ ـ مارس ١٩٤٨) في فرنسا. منها خمس سنوات في التعرف على مناهج العلوم في الغرب وتحضير درجة الليسانس والأخرى في إعداد رسالته عن الأخلاق، وكان في خلال

(١) انظر هذه القاعدة ـ الشيخ عبد الله المراغي، مجلة الأزهر عدد جمادى الآخرة ١٣٧١هـ .

ذلك كله يُعايش القرآن الكريم في تفسيراته المختلفة ليستخرج منها ومن إبداعه النفسي والروحي ذلك الفيض الكريم الذي قدمه إلى الغرب في اللغة الفرنسية عام ١٩٤٧م . والذي لم يترجم إلى اللغة العربية إلا عام ١٩٧٣م بعد أن كان رحمه الله قد فارق الحياة بربع قرن[١] .

إن هذه الدراسة القيمة «دستور الأخلاق في القرآن» كما يقول المفكر الإسلامي الكبير الأستاذ محمد عبد الله السمان : « دراسةٌ على المستوى العلمي الرفيع، ولا أظن أن كلمات أيًا كانت تفي حقها من التقدير» ولقد كتب الدكتور دراز كتبًا عظيمة الفائدة، كثيرة النفع للأمة، قلَّ أن يوجد لها نظيرٌ في المكتبة الإسلامية، وما أظن أن كثيرًا من العلماء قديمًا أوحديثًا قد اهتدوا إلى ما تناوله الدكتور دراز في مؤلفاته القيمة.

ونحن نهتم بتقديم أُطروحته للدكتوراه، لما وفقه الله إليه من خدماتٍ جليلة للفكر الإسلامي، غير مسبوقة بنظير، ولو لم يكن له من الآثار المجمع على جلالتها وخلودها، وشُمول نفعها، وشدة الحاجة إليها سوى «دستور الأخلاق في القرآن» لكفاه فضلاً وفخرًا وهو أثرٌ جليل القدر، عظيمُ النفع في إصلاح الفرد وتكوين المجتمع الصالح.

ولاريب أن هذه الرسالة من أهم أعمال الدكتور دراز الفكرية الذائعة الصيت، فقد أضاف بهذه الرسالة إضافةً حقيقيةً للفكر الإسلامي، وتعد فتحًا جديدًا غير مسبوق، فلقد تناول فلسفة الأخلاق الإسلامية كثيرٌ من علماء المسلمين من أمثال ابن مسكويه، والغزالي، وابن حزم وغيرهم، ولكن أحدًا لم يصل إلى استخراج منهج القرآن الأخلاقي كاملاً ومُفَصَلاً ومحررًا من المفاهيم اليونانية التي تأثر بها من كتبوا في القرن الثالث والرابع مثل ما وصل إليه الدكتور دراز.

ونجد أثر التكوين العلمي الرصين في هذه الرسالة حيث لم يكتف بتوضيح وجهة

(١) أنور الجندي - أعلام الإسلام - دار الاعتصام ص ١٩ .

النظر الإسلامية، بل كان يجليها بمقارنتها بآراء المفكرين والفلاسفة ، وكان لا يترك مناسبةً إلا استعرض فيها رأيّ عالم من علماء الغرب أو نظرية من النظريات السائدة ثم بيّن ما في هذه النظرية، أو في ذلك الرأي من قصور أو خطأ، ويعقب ذلك ببيان كمال النظرية الأخلاقية في القرآن الكريم .

والدكتور دراز بهذا العمل الجليل من الشخصيات التى أسهمت بنصيبٍ موفور في خدمة هذا العلم بما بذل من جهدٍ كبير، وما ترك من آثار وبما وضع من منهاج، وما وصل إليه من غايات بشكلٍ ملأ فراغًا ولبى حاجةً وأروى ظمأً طالما تطلعت الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي إلى تحقيقه ومواجهة الناس به.

وقيمة أي شيء رهنٌ بالحاجة إليه وقيمة الكتاب بما بُذل فيه من جهد وعناء، وبما يسد من فراغ هائل في المكتبة والفكر لولا وجوده لبقي شاغرًا فلا ينوب عنه غيره ولا يسد مسده .

لهذا يُسارع الدكتور دراز في مقدمة رسالته بإثبات القاعدة الرشيدة لشمس الدين البابلي والتي تقول: «لا يؤلف أحدٌ كتابًا إلا في أحد أقسام سبعة، ولا يمكن التأليف في غيرها ، وهي : إما أن يُؤلف في شيء لم يُسبق إليه: يخترعه، أو شيءٌ ناقصٌ: يتممه، أو شيء مستغلق: يشرحه، أو طويل : يختصره دون أن يخل بشيء في معانيه، أو شيء مختلط يرتبه ، أو شيء أخطأ فيه مصنفه يبينه، أو شيءٌ مفرقٌ: يجمعه .

يقول الدكتور دراز «هذه القاعدة الرشيدة التى قالها عالمٌ أزهريٌ من علماء القرن السابع عشر الميلادي، تحتفظ دائمًا بقيمتها وهي تدعو دائمًا كل كاتب أن يسير على نهجها ولسوف يكون لدى قارئنا الواعي فرصةً أن يُقدّر إلى أي مدى يوفي كتابنا الذي نقدمه اليوم. بهذه الشرائط فلم يكن شُروعنا في هذا المؤلف الجديد عن القرآن عبثًا نضيع فيه وقتنا، ونثقل به على قرائنا، ونزحم به مكتباتنا، فإذا لم يأت عملنا هذا

بشيء جديد في عالم الشرق أو الغرب، فلن يكون سوى مضيعة وزحمة وإثقال[١].

ولايمكن لرسالة تظهر في آخر النصف الأول من القرن العشرين باحثة عن طريق السعادة لبني الإنسان إلا أن تكون ثمرةً ناضجةً لتجارب عميقة، وعصارةً صافية لقراءاتٍ بصيرة. فموضوع حيّ كعلم الأخلاق القرآني يتطلب من الجَلَدْ والموهبة نصيبًا كبيرًا يعين على سبره واكتشافه .

فهو في حاجة ماسة إلى دراسات متشعبة لعلوم النفس والتربية والاجتماع من ناحية، وإلى نفس حية خصبة المشاعر، قوية الأحاسيس من ناحية ثانية، ثم إلى عقل بصير يزن ويحلل وينقد من ناحية ثالثة، وبهذه الأضلاع الثلاثة يمكنك أن تجد فائدة صادقة فيما تُطالع من بحث وما تنشد من تسديد[٢] .

والحق أننا لا نجد أفضل من هذا الكلام للدكتور محمد رجب البيومي نقدم به حديثنا عن دستور الأخلاق في القرآن، فالكتاب بموضوعه ومؤلفه جديرٌ بأن نُعرف به شباب الإسلام ليزدادوا إيمانًا بأصالة الأخلاق القرآنية، ونحن لا نحتاج إلى إيضاح هدف الكتاب للقراء فعنوانه الدقيق «دستور الأخلاق في القرآن» ، يكفي كفايةً تامةً في بيان مرماه، ولكننا نُوضح الأسس التى ارتفع عليها بناء هذا السِفْر الضخم، ولعلها تنحصر في شمول النظرة ، وتنوع الثقافة، وبلاغة التعبير، وثلاثتها تسد سدًا حميدًا في الإقناع والتوجيه .

إن النظرة المحدودة لشيء ما لا تستطيع أن تبرزه على حقيقته، فأنت إذا نظرت من زاوية خاصة إلى لوحة حسية أمام عينيك لا تقدر أن تتكشف جوانبها المختلفة ، بل تعود منها بفكرة جزئية تصْدق في أمر، وتكذب في أُمور، والنظرة المحدودة في دراسة

---

(١) د. محمد عبد الله دراز ـ دستور الأخلاق في القرآن ـ مقدمته .

(٢) د. محمد رجب البيومي ـ مجلة الأزهر جـ١ المجلد الحادي والثلاثون ١٩٥٩م .

علم الأخلاق أشد خطرًا على الحقيقة، وأبعد مدىً عن الواقع، فلابد لمن يسبر أغوار هذه القضية للتعريف بها في ميدان الإعلام بالإسلام في العالم الأوربي أن يُقَلِب الرأي على شتى وجوهه. وأن ينظر إلى موضوعه نظرة المتفرس الذي لا يدع زاوية في منحنىً أو مسربًا في اتجاه، وإذ ذاك يستطيع أن يقدم ما يقنع ويمتع، فلا يترك نقدًا يتردد في العقل، أو استدراكًا يفد إلى التفكير وإذا بلغ الكاتب هذا المبلغ فقد سلك الطريق القويم، وأنت تطالع النظرة فيما تطالع من صفحات هذه الرسالة القيمة، فما يُلم مؤلفها بناحية إلا وشفعها بإيضاح ما تنطوي عليه من غوامض، ولا يجيز لقلمه أن يجلو منها وجهًا واحدًا، فقد يكون الوجه الآخر أدعى إلى استكمال الرأي ونضوج المذهب[١]. من هذا المنطلق يرى أحد كتابنا المرموقين أن الدكتور محمد عبد الله دراز عالمٌ جليلٌ، يحترم نفسه، ويعتز بعلمه، ويعرف مقام قلمه، لذلك قدم إلى القارئ دراسةً تقرأ؛ وكتابًا يجد مكانه في مكتبة الفكر الإسلامي الأصيل[٢] .

وحتى ندرك قيمة هذه الرسالة يحدثنا الدكتور محمد رجب البيومي فيقول أعزه الله «إن الدكتور دراز حين تهيأ لإعداد رسالته لم يحتطب في حبل المستشرقين كما نعهد لدى كثير من المبعوثين الذين يخضعون إلى توجيهات مريبة. فيكتبون عن الإسلام والعربية ما يُرضي نزعات من يشرفون على رسائلهم . وفيهم من يشتط فيعبر عن كل ما يودون إذاعته من أراجيف لينال الحظوة لدى قوم يسوؤهم أن يظهر الإسلام في مظهره الشريف» .

لقد قدر دراز أنه مبعوث الأزهر. وأن عليه أن يُصحح أخطاء من جحدوا الإسلام عن عمد أو جهل، وما دام لديه المنطق الصحيح فخيرٌ له أن يخوض المعركة مع خصومه الذين هم في الوقت نفسه أساتذته الفاحصون والمشرفون . وإليهم يرجع الأمر

(١) د. البيومي ـ المرجع السابق مع تصرف يسير .

(٢) محمد عبد الله السمان ـ مقال: الفكر الإسلامي إلى أين؟ ـ مجلة الأمة عدد ٤ .

في تقدير الرسالة قبولاً أو رفضًا[١]. لقد عاش الدكتور دراز عمره مع القرآن الكريم، واغترف من منابع الثقافة الغربية ما أهله لتوجيه الخطاب إلى العقلية الأوربية بما تفهمه وتقدره ، فقام بتحليل فلسفاتهم الأخلاقية، وفضح ثغراتها؛ لأنها إفرازٌ للذهن البشري الذي جُبل على النقص مهما أُوتي من مواهب الذكاء والعبقرية. وها هي مذاهب الفلاسفة تتهاوى واحدًا وراء الآخر أمام النسق الأخلاقي المتكامل للقرآن الكريم الذي لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها[٢] وبهذا لمع اسم الدكتور دراز في قلب باريس وفي أعرق جامعة بفرنسا فلم تُزغ بصره أضواء باريس، ولم تفتنه ثقافة أورُبا . فقد عصمته ثقافته الإسلامية بقلعتها الصلبة أن تنفذ إليها السهام، بل إنه ـ رحمه الله وأجزل مثوبته ـ قام بغزو ثقافي مضاد للثقافة الغربية في عُقر دارها[٣] . ولاشك أن أيَّ باحث في الأخلاق الإسلامية لابد له من الاستناد إلى ماكتبه الدكتور دراز في مجال الأخلاق؛ لأن هذا العالم الجليل قد استكمل وسائل البحث التي أهلته للخوض في ميدان علم الأخلاق بتكوينه الإسلامي الأصيل ، وقد برع في الإحاطة بالقانون الأخلاقي في القرآن الكريم بمنهج جديد لم يسبقه إليه أحدٌ فيما نعلم[٤] .

ولقد أدرك الدكتور دراز أن مسئولية أبناء الإسلام البررة المخلصين، وأنصاره وحماته من العلماء والمصلحين القائمين بعرضه والتعبير عنه، في هذا الوضع المزيج الذي تُشكله أبدية الدين وخلوده. وتطور الحياة ونموها المستمر تنحصر في أن يقوموا (كلٌّ في عصره) بعرض الإسلام ومحاسنه وتعليماته بأسلوب يُقوي إيمان أبناء عصورهم من جديد بهذا الدين الخالد وحقائقه الثابتة وعقائده الأبدية ويعيد إلى نفوسهم الثقة

---

(١) د. محمد رجب ليومي ـ النهضة الإسلامية جـ ٥ – طبعة مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة .

(٢، ٣) د. مصطفى محمد حلمي ـ مقدمة مختصر دستور الأخلاق ـ ترجمة عليّ عبد العظيم :دار الدعوة ـ الإسكندرية .

(٤) د. مصطفى حلمي ـ مقدمته لمختصر دستور الأخلاق في القرآن ـ دار الدعوة .

بفضلها، وحاجة البشرية والمدنية إليها[١] وهذا ما أشار إليه سيدنا عليّ كرم الله وجهه حينما قال: «**كلموا الناس على قدر عقولهم، أتريدون أن يكذب الله ورسوله**»[٢] وهذا ما صنعه الدكتور دراز حين قدم إلى الفكر الأورُبي دراسةً تقرأ وتضيف الجديد المبتكر في مجال الأخلاق القرآنية.

فقد قدم باجتهاده الخاص الآيات القرآنية المتصلة بعلم الأخلاق في أرقى إطارٍ يتقبله الفكر الغربي بفروعه الثقافية المتنوعة . لاسيما النفس والأخلاق والتربية والاجتماع، ولايسع القارئ بعد استيعاب أدلته والسير مع منطقه الهادئ الرزين الذي يُخاطب العقل مقدمًا الدليل تلْوَ الدليل ـ لا يسعه إلا الدهشة المشوبة بالإعجاب إذ يكتشف إعجازًا للقرآن لم نكن نعرفه من قبل . وهو الإعجاز في مجال الأخلاق فلا نملك إلا الإقرار والإعتراف بأنه حقٌ وصدقٌ من لدن عليم خبير[٣] .

ومن عرف الدكتور دراز عرف أنه قد تزود لهذه الرسالة بزاد غير علمه الغزير وشجاعته الصادقة، وهو زاد القلب الطيب والسجية الكريمة . تجمع الخصوم على الأُلفة والثقة كما تجمع الأصحاب والأنصار ، ولسوف يكون لدى قارئنا قناعة كافية بصدق ما نقول وهو يُطالع صفحات هذا البحث المتواضع والذي كان جهدنا فيه هو جمع كل ما كتب عن «**دستور الأخلاق في القرآن**» .

وقد كان متفرقًا متناثرًا كحبات اللؤلؤ، ولعل في حشد مادة هذا البحث على هذا النحو يلبي حاجة الشباب في معرفة هذا الأثر الخالد في الفكر الإسلامي، ونرجو أن نكون قد أدينا بعض الوفاء لهذا العالم الجليل .

نسأل الله عز وجل أن يجمعنا به في جناتٍ ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

---

(١) أبو الحسن الندوى ـ التفسير السياسي للإسلام ص ٤ .

(٢) البخاري قال عليّ. ك/ العلم.
ب/ من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية أن (١٢٤).

(٣) د. مصطفى حلمى ـ المصدر السابق .

٢ـ العصر الذي كتبت فيه الرسالة

لقد كان الدكتور دراز يعيش أحداث عصره عيش الواعي، اليقظ الدءوب، فهو يطالع ما يجد من النظريات الاجتماعية، والأصول القانونية، وما تفيض به الصحف من إصلاحات اجتماعية وسياسية حدثت في أوربا وبهرت الناس بما انتهت إليه، فلا ينكل عن أن يبدي رأي الإسلام فيما جد، يبديه مدعمًا بالدليل، حريصًا على ألا يستثير القارئ بتحمس مفتعل يضر أكثر مما ينفع، بل ليستميله بما يبدي في هدوءٍ تام من الحجج ذات الوجه الصريح، وأكثر ما شغل القراء، وأثار تطلعاتِ الدارسين هي ما واجه به أحداث العصر ومستحدثاته من كتب ومقالات تثبت عراقة الإسلام وشموله لكل ما يحدث ، وكان له من الحُظوة لدى الدارسين ما يجعل بحوثه موضعًا للاهتمام الفريد، فالرجل حين خاض معركة العقيدة والأخلاق ضد زبانية الاستعمار من أصحاب الفلسفات المادية التي تبدئ وتعيد في نطاق الحمأ المسنون، وأصبح للإلحاد منابر تنشر أراجيفه التي تبلبل الفكر، وتذهب بنور الإيمان. وقف يُذَكِّر أبناءه من طلاب الأزهر بمفاهيم الإيمان الصحيح[1] ودورها في إصلاح المجتمع، ونشر الفضيلة فيه، وأن الأمة لن تجني سوى الخراب والدمار، إن سِرْنا في ركب الفكر المادي والإلحادي .

أقول : إن الفكرة الرئيسية التي اهتم بها الرجل في عصره وألح عليها وأبرزها بكل وضوح[2] هي أنه لا مكان للأخلاق بدون عقيدة، والعقيدة هنا تتصل بالأخلاق ذاتها، ومعناها. الإيمان بالحقيقة الأخلاقية كحقيقة قائمةٍ بذاتها «تسمو» على الفرد

---

(١) راجع إن شئت مؤلفاته: «المختار من كنوز السنة» و«نظرات في الإسلام» و«ثيابك فطهر» .

(٢) راجع كتابه الضخم الفخم « دستور الأخلاق في القرآن» .

وتفرض نفسها عليه بغض النظر عن أهوائه ومصالحه ورغباته[1].

وفي بعثته العلمية إلى فرنسا عاصر دراز الحرب العالمية الثانية واكتوى الرجل بنارها، ولمس عن قرب هذا الخراب الأخلاقي الذي تعيشه أورُبا . وطوال أحد عشر عامًا من (١٩٣٦ ـ ١٩٤٧) عاش دراز القضية وسار في طريق لم يرتده أزهريٌّ قبله.

ويصور لنا تلميذه النجيب الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين العصر الذي كتبت فيه **(دستور الأخلاق في القرآن)** فيقول:

حين شرع الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابة أطروحته للدكتوراه لم يكن يكتب هذا العمل على أنه مجرد وسيلة إلى هدف هو نَيْل إجازة دكتوراه الدولة في الفلسفة من السوربون، فقد كان بوسعه أن يحقق هدفه بأقل مما بذل من جهد، ولكنه كان يحمل في ضميره رسالة هذا الدين الداعي إلى السلام، في فترة كانت أورُبا خلالها بل العالم كله من حوله كتلةً ملتهبةً من الصراع والدمار، وأسوأ ما قاد أورُبا والعالم معها إلى ذلك المصير المحزن هو بلاشك الخراب الأخلاقي الذي ران على وجوه الحياة السياسية والاجتماعية والفردية لدرجة لم يستطع معها رباط المسيحية بين الدول المتحاربة أن يزعها عن التحارب أو «التخارب» إن صح التعبير، ولم يكن الحلفاء في مواجهة هتلر والنازية بأحسن حالاً من الوجهة الأخلاقية، فانهيار فرنسا أمام الزحف النازي في يوم وليلة، إنما كان انهيارًا أخلاقيًا في جوهره ، كما لاحظ ذلك بحق المارشال (بيتان) رئيس الجمهورية الفرنسية إبان الإحتلال في رسالته التي وجهها إلى ضمير الأمة الفرنسية صبيحة الهزيمة أو عشيتها، والتغير العقائدي الذي سيطر على دول أورُبا باسم «العلمانية ، أو المادية، أو الفاشية، أو النازية، أو الشيوعية» هو في الحقيقة خرابٌ أخلاقيٌّ ابتليت به الإنسانية، وإن تقمص أرديةً شتى والنزعة الاستعمارية المتأصلة في سلوك أمم أورُبا على اختلاف مشاربها هي أيضًا من أبرز ظواهر الخراب

(١) د. السيد محمد بدوي ـ مقدمة دستور الأخلاق .

الأخلاقي، بما يصحبها من استغلال وعنصرية، وتآمر على مصائر الشعوب ونهب لثرواتها، وفتك بالأبرياء من أبنائها[1] .

وسط هذه الخرائب، وتحت هدير المدافع والقنابل كتب دراز دستور الأخلاق أشبه بصرخة في وادي الدماء والدموع، والفساد والضياع، عسى أن تفيء الإنسانية الأوربية إلى رشدها، وتفيد عبرة من تجربتها الأليمة وتختار طريقًا أخرى من أجل السلام والخلاص[2].

ولعل قائلاً يقول: كيف ترى أن هناك خرابًا ؟ ونحن لا نشهد إلا تقدمًا وعمرانًا في كل مجالات الحياة الأورُبية والأمريكية ؟

والواقع أن النشاط الحضاري في هاتين القارتين قد ركز على الجانب المادي الذي يمنح الحياة مُتعًا أفضل من الطعام والشراب، والمأوى والرعاية الطبية، والخدمات ، وسائر الطيبات، حتى أصبح من هذه الناحية مثلاً أعلى لكل تخطيط للنهضة في أي وطن.

أما الجانب الأخلاقي فقد تخلف كثيرًا، لدرجة أن أحدًا لم يعد يتصور أن من الممكن تحقيق أدنى تقدم في سبيل إصلاحه، ولاسيما بعد أن وكل أمر الحياة بكل أبعادها إلى حكم العقول الإلكترونية فهي التي تأمر وتنهى، وتعطي وتمنع!!

لقد أصبحت الحياة أرقامًا وعلاقات حسابية، خلوًا من أية قيمة إنسانية ومن الممكن قطعًا أن نُسَلم بأن حجم المشكلة الأخلاقية على محور الحضارة الغربية قد أصبح أكبر من طاقة مصلحية، وقدرتهم على مواجهته ربما لأن طابع الحضارة الغربية ماديٌّ في جوهره، ومن العسير أن تجد الأخلاق لها مكانًا في عالم يعيش كل شيء بمعيار مادي،

---

(١) د. عبد الصبور شاهين ـ من كلمته في تعريب الرسالة .

(٢) المصدر السابق .

فإن الآلات صماء لا تفهم، ولاتنفعل، تمامًا كالأرقام التي تملأ معدتها. أما نحن هنا في أرض العروبة والإسلام ، فما زلنا أقرب إلى تدارك الخطر، ونحن جادون في البحث عن حل لمشكلاتنا الاجتماعية والسياسية من خلال مفهوم أخلاقي يتناسب مع واقعنا وتُراثنا[1] ..

أدرك دراز أن الإسلام هو الحل الأمثل لكل ما تعاني منه الإنسانية : أورُبية أو غير أورُبية ، من أدواء، لكن من ذا الذي يفتح الأعين على نور الحقيقة .

تلكم كانت رسالة دراز في عصره تقديم المنهاج الأخلاقي الذي يجب أن ترسمه الإنسانية من أجل أمانها النفسي، وإيمانها العميق.

لقد خرجت أورُبا من الحرب العالمية الثانية بدمارٍ أكبر، وتحللٍ أعمق فأخذت تبحث لاهثةً عن حلول لمشكلاتها الأخلاقية، خارج إطار الدين تارةً في أفكار الشيوعية المنتصرة، وأُخرى في ثنايا الوجودية كفكرة عن الكون والإنسان، إلى كثير من الملل والنحل المستحدثة ، ولما لم يجد الناس حلاً واحدًا ناجحًا فيما عُرض عليهم من محاولات الفكر، في الوقت الذي لم تبلغ فكرة الإسلام وفلسفته إلى الجماهير، نتيجة تقصير المسلمين الشائن في تبليغ دعوتهم الصافية، ونتيجة طمس المؤسسات التبشيرية والصهيونية لحقائق هذا الدين. ساد الخراب الأخلاقي، وانطلق الشباب في موجات يائسة، يتسكعون في الطرقات ، ضاربين عرض الحائط بكل قيمة أخلاقية تَعارف عليها البشر، أو دعت إليها الأديان . وأقبل الشباب على تعاطي سموم المخدرات، وارتكاب أبشع الجرائم الجنسية والعدوانية، وعرف الناس من بين ما عرفوا أن فيما تنتج الأرض ما هو أغلى من الذهب وأثمن من الماس :

الماريجوانا، والهيروين ومشتقاتهما، وأثمن من ذلك كله وأغلى : أنفس الناس

---

(١) د. عبد الصبور شاهين ـ كلمته في تعريب الرسالة.

وأخلاقهم المحترمة[1] .

في هذا الجو الخانق الموبوء، تقدم دراز بفلسفة القرآن الأخلاقية يقارن ويحلل ويناظر ويقرع الحجة بالحجة، والدليل بالدليل، والفكرة بالفكرة، حتى أثبت بما لايدع مجالاً لارتياب، أصالة المنهاج الأخلاقي في الإسلام الذي جاء موائمًا للفطرة التى فطر الله الناس عليها، وتهافت الأخلاق الغربية وقصورها لأنها نتاج عقل بشري قاصر.

(١) د. عبد الصبور شاهين ـ انظر كلمته في تعريب الرسالة .

٣ـ حول رحلته العلمية إلى فرنسا(*)

في موجة الحر الشديدة التى اجتاحت القطر المصري في شهر مايو عام ١٩٣٦م كُتب اسم محمد عبدالله دراز بين مبعوثي الأزهر الشريف في بعثة فؤاد الأول إلى فرنسا، وقُدر للشيخ أن يغادر القاهرة إلى باريس تاركًا زوجته وأولاده التسعة .

لقد آثر الشيخ أن يسافر وحده ليدرس الحياة الإجتماعية في فرنسا ـ تلك الحياة التى يصورها المصورون بأبشع صورة .. ولهذا أراد الشيخ الشرقيّ المحافظ على تقاليده أن يرى بنفسه هل يتيسر العيش في فرنسا لأسرته الشرقية المسلمة المتمسكة بزيها بحيث لا يؤثر ذلك على أخلاقها وتقاليدها .. أم لا ؟! ..

حياةٌ اجتماعيةٌ مشرفة

وفي مايو ١٩٣٧م استدعى الشيخ أسرته لتعيش بجواره آمنة مطمئنة فكيف حدث ذلك ؟

لقد درس طِوَال هذا العام الذي قضاه وحده الحالة الاجتماعية وكانت نتيجة أبحاثه على عكس ما يرى الناس من انحدار الحياة الباريسية . وصلت الأسرة إلى باريس وكانت تتألف من زوجة وتسعة أبناء وبنات أصغرهم لا يزيد كثيرًا على ستة أشهر وهناك ألحق الأبناء بالمدارس حيث لا فرق بين شرقي وفرنسي في التعليم .

وعاشت الأسرة راضيةً مطمئنة بجانب صاحبها الذي كان يسعى لنيل درجة الدكتوراه في «**دستور الأخلاق في القرآن**» وكانت الزوجة حريصةً كل الحرص على

(*) كانت الفترة التى عاشها الدكتور دراز في فرنسا والصعوبات التى واجهها مجهولة لدينا حتى قدمت لنا ابنته الكبرى حرم الدكتور السيد محمد بدوي ـ حوارًا صحفيًا أجراه الصحفي عصمت عبد الجواد عقب عودة الدكتور دراز من فرنسا مع فضيلته ، استقينا منه معظم معلوماتنا عن رحلته إلى فرنسا . ولم نقف على اسم الجريدة التي نُشر فيها الحوار .

أن تسود في المنزل التقاليد الشرقية، فكانت اللغة العربية هي لغة التخاطب بين جميع أفراد الأسرة حتى اللهجة المصرية الدارجة كانت حريصة عليها كل الحرص.

عند نشوب الحرب:

وعندما نشبت الحرب العظمى الثانية نصح كثيرون فضيلة الشيخ دراز بالعودة إلى مصر لكن هذه النصائح لم تحمل الشيخ على التفكير في العودة لأن واجب الدرس عنده كان فوق كل واجب .

ورأى الشيخ أن خير وسيلة لاتقاء خطر الغارات هي المهاجرة إلى الريف أيام الغارات فاستأجر منزلاً في ضواحي باريس ليكون مأوى من الغارات من ناحية ومصيفًا من ناحيةٍ أُخرى ، وكان له فوق ذلك أهمية كبرى لأن بعض أفراد الأسرة كانوا يعيشون في هذا المنزل ويقومون بتربية الدواجن وزراعة الفواكه والخضروات ثم يرسلون منها إلى باقي أفراد الأسرة في باريس. وقد كان هذا المنزل في طريق الجيش الأمريكي لسوء الحظ فأصيب بقنبلة عام ١٩٤٤م هدمته وأصيب بعض أبناء الشيخ بجروح لم تكن خطيرة .. وقضت عليهم الضرورة أن يهاجروا إلى منزل ريفى آخر فنقلت الأسرة إلى قرية مجاورة، ومن سوء حظهم أيضًا أن كان هذا المنزل بجوار معسكر للدبابات والذخائر وهدفًا للقذائف الألمانية والأمريكية ولكنه كان يتمتع بميزة هامة إذ كان له مخبأ في أسفل الدور الأول يعادل دورين تحت الأرض، وقد اضطرتهم الظروف في إحدى الغارات أن يختفوا في هذا المخبأ إثنى عشر يومًا متوالية، وكانوا ينتهزون فرصة هدنة بسيطة لا تستغرق بضعة دقائق يقف أثناءها رمي القذائف فيتسللون خلسة إلى الحديقة ويقطفون من ثمارها - ويذبحون بعض الطيور الموجودة عندهم وهكذا كانوا يأكلون.

٣- وريقاتٌ خيرٌ من الحياة:

كانت صفارة الإنذار كلما انطلقت تنذر بوقوع غارة أخذ الناس يهرعون إلى المخابئ حرصًا على أرواحهم، فكنت ترى الأم وقد احتضنت أولادها والأطفال وقد أمسكوا بتلابيب أمهاتهم وآبائهم ، وكان كل فرد يقول نفسي وأولادي أما شيخنا المحترم الجليل فلم يكن يفكر إلا في أوراق بحوثه التي سيقدمها للرسالة لقد كان ينزل المخبأ متأبطًا أوراقه تاركًا كل ما عداها .

٤- الليسانس أولاً:

لقد سافر فضيلة الشيخ دراز مبعوثًا من الأزهر لينال دكتوراه في الفلسفة من السوربون ولكنه رأى أن يقوم بدراسات فلسفية عامة قبل ذلك، فحصل في أول عام من رحلته على شهادة عليا في علم النفس، وهذا النشاط في البداية جعل الأزهر يرغب في أن يسعى الشيخ في الحصول على ليسانس في الآداب قبل الدكتوراه، وأكمل الشيخ دراسته حتى حصل على الشهادات العليا الأربع المطلوبة لليسانس وصادف أن آخر شهادة حصل فيها على الليسانس كانت يوم دخول الألمان فرنسا ونظرًا لاضطراب الحالة السياسية كانت سنة ١٩٤١م فترة تعطل في عمله الجامعي حتى أن ملف أوراقه في جامعة بوردو ضاع بين بوردو وباريس..

وفي عام ١٩٤٢م استطاع الشيخ أن يلتحق بالسوربون ثانيةً وبدأت إتصالاته بالأساتذة وعمل جاهدًا على تقديم موضوع الرسالة للحصول على تصديق عليه قبل البدء في تأليف الرسالة الكبرى وهي «**دستور الأخلاق في القرآن**» والرسالة المتممة وهي عن «**التعريف بالقرآن**» .

جهاد عشر سنوات:

واستغرقت رسالة الدكتوراه زهاء عشر سنوات ، يقول الدكتور دراز في ذلك: «إن العمل فيها لم ينقطع بتاتًا على الرغم من عقبات الحرب التي صادفته والتي كانت سببًا مباشرًا لهذه المدة الطويلة .. ثم يعترض ثانية ويقول .. ولكن هذه المدة ليست طويلةً بالنسبة للعمل الطبيعي لنيل دكتوراه الدولة» .

لقد وطأت قدماه أرض فرنسا عام ١٩٣٦م وتقدم لنيل الدكتوراه عام ١٩٤٧م.. جهاد عشر سنوات يسفر عن رسالة ضخمة موضوعها «**دستور الأخلاق في القرآن**» وباللغة الفرنسية .. لاشك أنه مجهود جبار يعتز به الشيخ دراز .

وبعد:

فقد كان الشيخ الدكتور دراز ناجحًا في حياته العلمية والعملية وكان نجاحه فيهما نجاحًا للجد وفوزًا للفضيلة؛ لأنه لم يعتمد في شهرته العلمية على الإعلان والتهويش ولا على الإستخذاء والملق . وإنما كان يجري في عمله على الإخلاص وفي معاملاته على الحق، وفي علاقاته على الشرف.

وأثبتت الفترة التى قضاها الدكتور دراز في فرنسا أنه لم يكن من الأفراد النابهين في مصر فحسب وإنما كان موئلاً لوطنه الإسلامي الرحيب وكان عالمًا مفكرًا مؤثرًا أعمق التأثير وأبعده في حياة هذا الوطن، وفي البيئات التى تُعنى بالدراسات العربية والإسلامية في جميع الأقطار العالمية .

٤- إعداده لرسالة الدكتوراه

بدأ الدكتور دراز يكتب هـذه الرسالة في أوائل الأربعينـات، وكانت الحرب العالمية الثانية قد بدأت تشتد وطأتها في أورُبا بعد هزيمة فرنسا وصحوة الحلفاء لوقف طغيان النازي.

وقد تحمل الدكتور دراز في سبيل إنجاز هذا العمل الكبير صعوبات الحرب كما بيّنّا ذلك في تناولنا لرحلته العلمية في فرنسا. ويقـول الأستاذ الدكتور السيد محمد بدوى وكـان هذا التحمـل من أجـل إمضـاء الخطط التي رسمهـا منـذ أمد بعيـد لنشـر رسـالة الإسلام في العالم الغربي .

فمـا إن وطـأت قدمه أرض فرنسـا حتى بدأ في تحقيق خطتـه؛ و لم ينتهج الطريق السهلة التي انتهجها غيره بالشروع في تحضير رسالة الدكتوراه رأسًا، بل فضل أن يسير في الطريـق الأكـاديمي من بدايتـه، ويفعـل ما يفعلـه طلاب العلم مـن الفرنسـيين الذين يعدون أنفسهم إعدادًا أكاديميًّا رصينًا. فالتحق بالسوربون للتحضير لدرجة الليسانس ، ودرس الفلسفة، والمنطق، والأخلاق، وعلم النفس، وعلم الاجتماع على أيدي أساتذة السـوربون والكوليج دي فرانس مـن أمثـال ماسـينون، وليفي بروفنسـال، ولوسـن، وفالون، وفوكونيه. ونجد أثر هـذا التكوين العلمي الرصين في رسالته حيث لم يكتف بتوضيح وجهة النظر الإسلامية ، بل كان يُجليهـا بمقارنتها بآراء المفكرين والفلاسفة، وكـان لا يترك مناسـبةً إلا استعرض فيهـا رأي عالمٍ من علمـاء الغرب، أو نظريـة من النظريـات السائدة، ثم يبيّـن ما في هذه النظريـة، أو في ذلك الرأي من قُصور أو خطأ، ويعقب ذلك ببيان كمال النظرية الأخلاقية في القرآن الكريم .

وقـد استغرقت كتابة هذه الرسـالة ما يقرب مـن سـت سـنوات . ويبدو أن العالم

الجليل قد شرع فيهـا في عام ١٩٤١م بعد أن انتهت حملة فرنسا، وعاد إلى باريس بعد مُضي عـام في بوردو (بجنوب غرب فرنسـا) حين اقـتربت الجيوش النازيـة من العاصمة الفرنسـية وأصبح سقوطها وشيكًا، وإذا أضفنا إلى هذه السـنوات الست خمس سنوات قبلهـا أمضاهـا الأسـتاذ في التعرف علـى منـاهج العلـوم في الغـرب وتحضـير درجـة الليسـانس، فإنه يكون قد أمضى ما بين إعداد العـدة وتنفيذ مشروعه حوالي أحد عشر عامًا .

و لم تكن هذه بالفترة الطويلة إذا قدرنا ما اكتنفها من سنوات الحرب العصيبة ، وما أثارته هـذه الحرب من مشـكلات مادية ونفسـية كـان الأسـتاذ يتحمل عبئها، ويحاول إبعادها عن أسرته الكبيرة التي صحبته في غربته. وأذكر أنه اضطر - أثناء هُجوم الحُلفاء لتحرير فرنسا - لقضاء أيامٍ طويلة مع أسرته في مخبأ تحت الأرض، كان يجمع فيه أوراقه التي يحرص عليها ويشـتغل وسط القنابل التى كان تدوي من حوله، على ضوء شمعة أو مصباح خافت[1] . ت هـ .

مناقشة الرسالة:

وفي إحدى قاعات السوربون التسع في يوم ١٥ / ١٢ / ١٩٤٧م وأمام لجنة مكونة من خمسـة مـن أسـاتذة السـوربون والكوليج دي فرانـس. دارت مناقشـة الرسـالة التي أسـتغرقت أربع سـاعات كاملـة ... وكـانت القاعـة ملأى بجمهور المتفرجين وكان الشيخ حريصًا على ألا يحضرهـا أحدٌ من أسـرته أسوة بالتقـاليد الشـرقية الريفية فكان وحيدًا فريـدًا بين جمهور الفرنسيين ... وفي شـكل نصف دائري جلسـت لجنة المناقشة يتوسـطها الرئيس العام . وأمـامهم جلس الطالب الأزهري الوقور يلبس الزي الشرقي «الجبة والقفطان والعمامة» وخلفه وعلى جانبيه اصطف جمهور المتفرجين .

---

(١) أ. د. السيد محمد بدوي - مقدمته للرسالة - طبعة مؤسسة الرسالة .

بدأ الشيخ بتلخيص رسالته حسب إشارة الرئيس و لم تمض مدةٌ طويلةٌ حتى بدأ الرئيس يقرظ الرسالة ويبرز النقاط الهامة فيها !!

و لم يكد الرئيس ينتهي حتى بدأ أحد الأعضاء قائلاً: «**أن الرسالة تبرز أن القرآن كتابٌ سماويٌ لا يتحيز لأمة ولا لدين خاص إنما هو دعوةٌ عالميةٌ وديانةٌ للبشر كافة**».. أن هذا الكلام مقنعٌ لدرجةٍ أخشى معها التأثير على نفسية المستمعين فتحولهم عن دينهم ثم توجه إلى الشيخ قائلاً : «**إنك ولا شك تُريد أن تجذبنا إلى الدين الإسلامي أليس كذلك؟؟**» .

قد تكون هذه دُعابة من المحقق وقد تكون اعتراضًا حقيقيًّا . ولكن المهم أنه مع باقي الممتحنين أجمعوا على مناقشة الطالب في ثلاث نقاط هامة يستغربها الأوربيون على الديانة الإسلامية: وهي تعدد الزوجات، وإنتشار الإسلام بالسيف، وانقطاع الوحي أو استمراره .

وبعد أن دارت المناقشة هذه الفترة الطويلة بين جمهور كبير من المستمعين قُبِلت الرسالة بين مظاهر الإعجاب والثناء[1] .

---

(١) حوار صحفي مع الدكتور دراز ـ أجراه / عصمت عبد الجواد ونشر بعد وصوله من فرنسا بأسبوع وقد احتفظت السيدة الفاضلة حرم الدكتور السيد بدوي بهذا الحوار ضمن أوراقها الخاصة. و لم أعثر على اسم الجريدة التي نشر بها .

٥ ـ حاجة المجتمع الإسلامي إلى الرسالة

١ـ حاجتنا التربوية :

كيف يمكننا أن نجعل أمتنا قادرةً على تربية أبنائها وفق دستور الأخلاق في القرآن بحيث يكون العلم طريقًا إلى العمل وهاديًا للتطبيق وبعبارة أُخرى؟ كيف تتمكن مؤسساتنا التربوية من صوغ مجتمع العدل والمُثل العليا الأخلاقية أو تشارك بدور كبير في صياغته[١]؟

وأول خطوة على طريق الجواب أن يلتزم المجتمع الإسلامي بدستور الأخلاق في القرآن وسبيلنا إلى ذلك تحقيق التوافق الذي ننشده في التربية الإسلامية مع مبادئ خُلق القرآن . نريد تربية الروح الإسلامية والضمير الإسلامي لأن لنظام التعليم روحًا وضميرًا كالكائن الحي له روحٌ وضمير. إن روح نظام التعليم وضميره إنما هو ظِلٌّ لعقائد واضعيه ونفسيتهم وغايتهم من العلم ودراسة الكون ووجهة النظر للحياة، ومظهر لأخلاقهم ، إن هذه الروح هي التي تسري في هيكله تمامًا إنها تسري في جميع العلوم :

في الأدب والفلسفة والتاريخ والفنون والعلوم العمرانية حتى في علم الإقتصاد والسياسة بحيث يصعب تجريدها من هذه الروح[٢] إن روح خُلق القرآن وعقائده يجب أن تتمثل وتتجسد في الأستاذ والمنهج والإدارة ولا ينبغي أن تخالف أو تفتر أو تستخفي، فإن التوحيد والعدل والفضيلة بطبيعتها تتفجر حرارةً وقوةً وحيوية، وتستحوذ على الإعجاب والإحترام، وإذا كنا لا نلمس هذا الإعجاب اليوم فذلك لسبب يسير هو أننا لا نتحلى بهذه الروح ـ ولا نُقدم إلى طلابنا إلا مناهج جامدةً

---

(١) د. أحمد عبد الرحمن إبراهيم ـ خُلق القرآن المبادئ والمعوقات طبعة ١٩٨٦ م .

(٢) أبو الحسن الندوي ـ الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص ٥٢ .

بعيدة عن مضمون خُلق القرآن ، وإن كان فيها منه شيئًا لم نفلح في إبرازه وتجليته، ولم نجتهد في الموازنة بينه وبين غيره من عناصر الثقافة الوافدة، ولم نبين لأبنائنا إمتيازه الحياتي وقدرته على تحقيق السعادة والكرامة لبني الإنسان في هذه الحياة الدنيا فضلاً عن الآخرة[1] .

ولقد إبتُليت ديار الإسلام بنقل الكثير من مذاهب الفلسفة الغربية في الوجود والمعرفة والأخلاق والتربية وهي مذاهبٌ ماديةٌ حسية في جوهرها ولا مجال في مثل هذه الفلسفة لمعرفة تأتي من طريق الوحي. فإذا تفشى الإيمان بهذه المذاهب هزل اليقين في الوحي بوصفه مصدرًا للمعرفة والتشريع والأخلاق.

وما قام به د. دراز من دراسةٍ لمذاهب الأخلاق وتقويمها يدعم اعتقادنا بأصالة قيمنا ويعيد الثقة إلى المبادئ والمعارف المتلقاة عن الوحي .

بيد أنه من المؤسف أن نجد أن نظم التعليم في ديار الإسلام لم تستفد من نظريات د. دراز وإخوانه من العلماء الذين قاموا بتأصيل العلوم والمعارف وفق منهج القرآن الذي يرتكز على أن الإيمان بالوحي هو الأصل - وما سواه يستند إليه[2] .

يقول العلامة أبو الحسن الندوي: «من المؤسف أن نجد مناهج دراسية عديدة قد تشكلت بصورة مناقضة لهذا المبدأ» الأمر الذي يحتم : « أن يُصاغ هذا النظام التعليمي صَوغًا جديدًا، ويلائم عقائد الأمة المسلمة ومقومات حياتها وأهدافها وحاجاتها، ويخرج من جميع مواده روح المادة، والتمرد على الله، والثورة على القيم الخُلقية والرُوحية، وتعبد الجسم والمادة، وينفخ فيه روح التقوى والإنابة إلى الله ، وتقدير الآخرة، والعطف على الإنسانية كلها »[3] .

هذا رأي الأستاذ الندوي في الموضوع .

---

(١) د. أحمد عبد الرحمن - مرجع سابق .

(٢) د. أحمد عبد الرحمن - خلق القرآن . مرجع سابق .

(٣) أبو الحسن الندوي - نقلاً عن خُلق القرآن - مرجع سابق .

أما الأستاذ أبو الأعلى المودودي (ومما لا يختلف فيه إثنان أننا مدعوون أن ندرس جميع المعارف من العلم والفلسفة والإجتماع والأخلاق ولكننا إذا أردنا أن نحيا ونبقى مسلمين يجب ألا ندرس هذه العلوم إلا بعد أن نجعلها إسلامية)(1) .

ويقول الأستاذ المودودي أيضًا :

(وإذا أردنا لأنفسنا حياةً إسلاميةً فعلينا أن نبادر إلى إنشاء مؤسسة بدون ما تأخير تقوم بتبديل الترتيب التأليفي الحاضر للعلوم والفنون . وتضع كُتبا منهجية تدون فيها العلوم والآداب حسب الفكرة الإسلامية ، وما لم يتحقق هذا العمل فنحن مهددون في ديننا وعقيدتنا، ومهددون في بلادنا كبلاد إسلامية)(2) .

لهذا جاء ما قدمه الدكتور دراز في مجال التأصيل لعلم الأخلاق القرآني ملبيًا لحاجة أمتنا. ومع ذلك فإننا لم نستفد بما كتبه د. دراز و لم نقدم منه شيئًا لأبنائنا في مناهج تعليمهم، فمراجعة مناهجنا التعليمية سوف تسفر عن وجود ثغرات عديدة فيها من ذلك مثلاً أننا لا ندرس الأخلاق الإسلامية. اللهم إلا فقرات متناثرات ضمن مناهج الثقافة الإسلامية . أو غيرها على الرغم من أننا لا نكف عن الشكوى من تدهور الأخلاق؟ ولعل السبب من وراء ذلك هو ما لوحظ على المؤلفات المتداولة في هذا الفن من أنها ترديدٌ لما قاله سقراط وأفلاطون وأرسطو، وكان الأجدر بنا أن نؤلف في الأخلاق الإسلامية لتدارك النقص في تلك المؤلفات ، لا أن نمتنع عن تدريسها فحسب، لأن الإمتناع تجنبٌ لوجع الدماغ .

يقول الدكتور أحمد عبد الرحمن إبراهيم -حفظه الله-: (والحق أن عندنا مؤلفًا عظيمًا في الأخلاق الإسلامية هو **«دستور الأخلاق في القرآن»** لكنه لم يعرف طريقه إلى مناهجنا الجامعية كسائر مؤلفات أعلام الصحوة ورواد النهضة الإسلامية من كبار

---

(1) المودودي (بين يدي الشباب) ص ١٠٨ نقلاً عن خُلق القرآن .

(2) المودودى (بين يدي الشباب) ص ١١٠ نقلاً عن خُلق القرآن للدكتور أحمد عبد الرحمن.

المفكرين المسلمين مع تسليم المتخصصين بأن لهذه المؤلفات أثرها الحاسم في تشكيل الفكر والسلوك»[١] .

ويرى الدكتور عبد الحليم عويس -أعزه الله- «أن الأخلاق الإسلامية اليوم أساسٌ من الأُسس التي لا خلاف حولها بالنسبة لقيام الأمم وبقائها وقيام الحضارات وازدهارها وقد يستطيع مجتمعٌ أن يعيش بدون أخلاق فترة من الوقت أو يعيش وفق أعراض ونظم وتقاليد تخلو من الأخلاق الزكية المنبعثة عن إيمانٍ صحيح وعقيدة إيجابية لكن شأن هذا النوع من المجتمعات إلى شقاء وسقوط ودائمًا يرتبط بقاء الأمم بمدى تماسكها الاخلاقي الذي يعكس تماسكها النفسي والفكري وشعورها الحي بالمسئولية وإلتزامها بالواجبات الإجتماعية ، ولا مكان للأخلاق بدون عقيدة وقد تؤدي العقيدة الباطلة إلى نوع من السلوكيات والأخلاقيات الجامدة التي تشبه الضوابط النفعية أو المصلحية».

بيد أن هذا النوع مؤهلٌ للسقوط عند الإمتحانات الحقيقية لكن الأخلاق النابعة من عقيدة صحيحة هي وحدها التي يقوى أصحابها على عبور كل الإمتحانات وعلى الصمود في وجه كل إغراءات الدنيا وهؤلاء هم الذين قدموا النماذج الحضارية الراقية. إن الحقائق الأخلاقية حين تصبح تعبيرًا عن إيمانٍ حيٍ صحيح تسمو بصاحبها عن الأنانية والذاتية المفرغة وتفرض عليه تبعات وسلوكيات قد تتناقض مع مصالحه الشخصية ورغباته وأهوائه. وإلى جانب هذا فإن الأخلاق المنبعثة عن عقيدة صحيحة تتجاوز الأفكار الجامدة والمفاهيم المجردة التي لا حياة فيها وتقود صاحبتها إلى التعرف على الضمير الأخلاقي الذي يعيش فيه ولهذا فهو يتعرف أيضًا على صوت الحق المطلق ويترجم في ثنايا قلبه الرسالة السماوية لخالقه، ونجده خلف الفكرة يلمح حقيقةً هامةً ومؤثرة ويشعر أنه مرتبطٌ بها إرتباطًا عضويًا ويستمد منها على القوة والدوام بالقوة

---

(١) د. أحمد عبد الرحمن إبراهيم - خُلق القرآن .

والنور ويشعر نحوها بأعمق مشاعر الإحترام ممزوجةً بأرق مشاعر الحب. هذه الشعلة العاطفية التي تُحرك إيمانه العقلي تغذي في الوقت نفسه طاقاته الخلاقة[1] .

وهو حين يتوقف أو يسقط لا ييأس إنه سيعاود الوقوف على قدميه ومتابعة المسيرة معتمدًا على تلك القوة الهائلة التى يستمد منها العون. وبذلك يمكن القول إن الأخلاق لا تجد مكانًا أكثر خصوبةٍ تزدهر فيه من ضمير المؤمن[2] .

وهذا ما أكده الدكتور دراز في دستور الأخلاق في القرآن فالجانب التربوى هو المحور وبيت القصيدة ويقصدُ دراز بالأخلاق ذلك الإلتزام الأخلاقي الذي ينبثق في أعماق الفرد نتيجة التربية الإسلامية التي تجعل الإنسان المسلم يلتزم بالشريعة وبالقيم الأخلاقية ليس خضوعًا للعقاب والحدود الشرعية . ولكن مراقبة لله وحُبًا له، وخوفًا من عقابه الأُخروى، ورغبةً في الثواب وفي الحياة الآخرة وإذا كان علم الأخلاق يتعلق موضوعه بالسلوك البشري فإن الإسلام لا يرضى بالسلوك المجرد بل يُعطي أهمية خاصة للباعث وهو النية .

ولهذا فقد كان د. دارز موفقًا غاية التوفيق في ذلك التجديد الذي يحاول به تعريف علم الاخلاق ملتزمًا بالرؤية الإسلامية فيرى أنه (علم يهتم بدراسة قواعد السلوك البشري وتطبيقاتها في ظل أُصول عقدية وغايات حددتها الشريعة كما حددت ضوابط هذا السلوك، بما يجعل هذه الضوابط معايير عامة لا تختلف في زمان أو مكان أو أشخاص) .

وهو بهذا علمٌ معياريٌ يجمع بين النظر والعمل وبين المثال والواقع. وهذا يؤكد حاجتنا الماسة إلى الأخلاق علمًا وعملاً في كل شئون حياتنا السياسية والإقتصادية.. فضلاً عن سلوك الأفراد والجماعات والهيئات والحكومات فإن إتمام مكارم الأخلاق

---

(١) د. عبد الحليم عويس ـ ثوابت ضرورية في فقه الصحوة الاسلامية ص ٩٧ ، ص ٩٨ دار الصحوة ـ القاهرة.

(٢) انظر عرض الدكتور السيد بدوي لدستور الأخلاق في القرآن .

(٣) المرجع السابق وانظر د. عبد الحليم عويس ص ١٠٠ من كتابه «ثوابت ضرورية» .

كان الهدف الرئيسي من بعثة محمد بن عبد الله ﷺ .

و«**دستور الأخلاق في القرآن**» منهاجٌ كاملٌ - علميٌ وعمليٌ - لحركة إصلاح أخلاقية وهو ثمرة بحوث واسعة النطاق لم تترك صغيرةً ولا كبيرة تتصل بعلم الأخلاق شرقًا وغربًا في أية ثقافة أو حضارة أو دين إلا وزنها الدكتور دراز بميزان القرآن. وعرضها عرضًا أكاديميًا أمينًا وبناءًا من أجل خير الإنسانية جمعاء، وأولى الناس بالأخذ بهذا المنهج عالم العروبة والإسلام وإمتثالاً لأمر الله تعالى واتباعًا لسنة نبيه الكريم ﷺ ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ**﴾[1] .
ومن العسير أن تقوم ثورةٌ أخلاقيةٌ دون منهاج ترسمه والكتاب الذي يقدمه لنا الدكتور دراز يتضمن هذا المنهاج . وهو رسالة ضمير صادق الإيمان.. عميق الإدراك لمشكلات عالمه وبخاصة عالم العروبة والإسلام . سديد النظرة إلى ما جاء في القرآن من إشارات عميقة دقيقة الحكم في كل ما قدم من مناقشات تفسيرية أو مقارنات فلسفية. وما نحسب مؤلفه رضوان الله عليه إلا راضيًا تمام الرضا في برزخه وهو يُشرف من الملأ الأعلى ليرى كلمته الصادقة تتحرك من جديد، بلغة القرآن . لتُسْهِم في صنع الحياة وبناء الإنسان المسلم الذي لا يجد قَدَرُه إلا في مجالات الصراع، وميادين القتال. ضد أعداء الله وأعداء الأخلاق القرآنية[2] .

وربما لم يكن يدري د. دراز حينذاك أنه يُقدم أيضًا أعظم هدية لأمته الإسلامية وهي في أشد الحاجة إليها الآن أكثر من أي وقتٍ مضى لإنقاذها من الأضاليل التي تبغى سلخها من هويتها ووضعها مع قافلة التبعية الذليلة، باسم ألفاظ جوفاء مزورة كالتنوير وحرية الثقافة والفكر بينما هي خير أُمةٍ أُخرجت للناس إن أمرت بالمعروف ونهت عن المنكر وآمنت با لله .

---

(١) الأنعام (١٥٣) .

(٢) د. عبد الصبور شاهين - المقدمة .

٦- مكانة دستور الأخلاق في الفكر الإعلامي المعاصر

يحدثنا الدكتور عبد العزيز شرف عن مكانة الرسالة في الفكر الإسلامي المعاصر وأن الدكتور دراز يحتل مكانةً رائدةً في الفكر الإعلامي الإسلامي المعاصر فيقول: (لقد أدرك الدكتور دراز منذ وقت مبكر أهمية الإعلام بالإسلام في العالم المعاصر بين غير الناطقين بالعربية فقد جاءت بُحوثه ومؤلفاته التي نشرها بالفرنسية والتي تُرجمت إلى اللغة العربية مثل: «**دستور الأخلاق في القرآن**» يؤكد أهمية الإعلام الإسلامي في العالم المعاصر باللغات المختلفة ولا سيما أن الإسلام قد أُنزل للناس كافةً وأنه لم ينزل للعرب وحدهم وأن الإعلام الإسلامي فريضةٌ واجبةٌ على كل مسلم .

هذا الإيمان هو الذي دفع باستاذنا المفكر الكبير الدكتور محمد عبد الله دراز إلى إنتهاج هذا الطريق ولنتوقف لنرى أهمية هذا المؤلف في خدمة الدعوة الإسلامية ورسالة الإعلام الإسلامي المعاصر .

إن مشكلة الأخلاق من المشكلات التي توقف أمامها الفلاسفة منذ عهد الإغريق وحتى اليوم وأصبحت بابًا رئيسيًا من أبواب الدراسات الفلسفية وأن الأخلاق بالقياس إلى التقدم الحضاري تحتاج إلى مزيدٍ من الدراسات ، وفي الفكر الاورُبي بصفة خاصة إزدادت هذه الدراسات الموضوعية حول المشكلة الأخلاقية وكلٌّ يتناولها من جانب وكل يرى لها حلولاً ينتقدها .

ويختلف الدكتور دراز في كثير مما ذهب إليه الفلاسفة والدارسون في الفكر الأورُبي

(١) استمع إن شئت لإذاعة القرآن الكريم بالقاهرة (لبرنامج خاص عن الدكتور دراز يذاع يوم ٦ يناير من كل عام) إعداد وتقديم الإذاعي اللامع الأستاذ محمد عوض .

ويقدم الحلول الناجعة لأعوص أو أصعب المشكلات التي يواجهها الإنسان الأورُبي كلما تقدم في العلم .

ذلك أن البناء الأخلاقي هو الذي يشهد لحضارة ما بأنها كانت تقوم على أساس سليم أو أن هذه الحضارة تضمن لنفسها مقومات الإستمرار والبقاء. ومن هنا كان الإحتفاء في فرنسا بصفة خاصة بهذا البحث القيم عن دستور الأخلاق في القرآن مؤكدًا ما نذهب إليه من أن الدكتور دراز من أهم رواد الإعلام الإسلامي المعاصر ليس على صعيد الإعلام المحلي الداخلي وإنما على صعيد الإعلام الدولي .



الفصل الثاني

سر إهتمام الدكتور دراز بالبحث الخلقي

١ـ تجاهل عُلماء الغرب لعلم الأخلاق القرآني .
٢ـ مُحاولات علماء الغرب .
٣ـ موقف عُلماء المسلمين في المجال النظري.
٤ـ وأما في المجال العلمي.
٥ـ تقسيمٌ ومنهج .
٦ـ منهج الدكتور دراز.
٧ـ الجانب النظري .
٨ـ القرآن يُؤسس النظرية الأخلاقية .
٩ـ دراسةٌ مُقارنة .



سر إهتمام الدكتور دراز بالبحث الخلقي[١]

١- تجاهل علماء الغرب لعلم الأخلاق القرآني:

إن إهتمام مفكر عملاق مثل الدكتور دراز بالبحث الخلقي يحتاج إلى تأمل ونظر، ذلك أنه بعد دراسته ومعايشته الفكرية مع علماء الغرب ممن تعرضوا للبحث الخُلقي وقف على الوضع السابق للمشكلة . فيقول «إن نظرةً سريعة نلقيها على مؤلفات علم الأخلاق العام - التي كتبها علماءٌ غربيون - كافيةٌ لنلحظ فيها فراغًا هائلاً وعميقًا، نشأ عن صمتهم المطلق عن علم الأخلاق القرآني.

والواقع أن هذه المؤلفات تذكر لنا باختصار، أو بإفاضة، المبادئ الأخلاقية، كما إرتأتها الوثنية الإغريقية ، ثم أديان اليهودية والمسيحية، ولكنها حين تنتهي من عرض هذه المراحل الثلاثة، نجدها تنقلنا بغتةً إلى العصور الحديثة، في أورُبا، مُغفلةً كل ما يمس الدستور الأخلاقي في الإسلام .

وبرغم هذا ، فإن الإضافة القرآنية في هذا الباب ذات قيمة لا تُقدَّر ، ولسوف يفيد منها تاريخ النظريات الأخلاقية سِعةً ، وعمقًا، وتوافقًا، كما تفيد المشكلة الأخلاقية ذاتها منها، في حل مصاعبها، سواءًا في ذلك المصاعب المتجددة والدائمة .

أليست إذن خسارةٌ صخمةٌ أن يُغفل أمر نظرية كهذه، وأن يلفها الصمت[٢]؟

٢- محاولات علماء الغرب:

يقول الدكتور دراز والحق أنه لو أننا - بدلاً من أن نبحث في هذه المؤلفات عن علم الأخلاق العام لجأنا إلى الكتب الأورُبية، التي تُعالج مسائل الإسلام بخاصة، فسوف نجد

---

(١) أغلب مادة هذا الفصل مستقاة من مقدمة الدكتور دراز للرسالة، كما أثبتنا بعض الهوامش للمؤلف والمترجم.

(٢) انظر مقدمة الدكتور دراز للرسالة ص ٢ .

أن مُحاولاتٍ قد تمت خلال القرن التاسع عشر، من أجل استخراج المبادئ الأخلاقية من القرآن، بيد أن إطار هذه المحاولات ، كان في الغالب محدودًا، كما كان مضمونها بعيدًا عن المطابقة الدقيقة للنظرية القرآنية الحقة .

فمن حيث الإطار نجدهم أغفلوا الجانب النظري من المسألة: فليس هنالك عالِمٌ أورُبي واحد حاول أن يستخلص من القرآن مبادئه الأخلاقية العامة، وفضلاً عن ذلك، فلم يكن لدى أيّ دارس من بينهم اهتمامٌ بأن يصوغ قواعده العملية، ويقدمها في صورة دستور كامل. وإنما انحصرت كل جهودهم في أن جمَّعوا عددًا، قليلاً أو كثيرًا، من الآيات القرآنية المتعلقة بالعبادة، أو بالسلوك ، وترجموها ترجمة حرفية[1] .

ويبدو لنا، أن الذي استهل هذه المجموعة من النصوص المختارة من القرآن كان المستشرق (جارسان دي تاسي) فقد قدم مؤلفًا صغيرًا بعنوان: «القرآن مبادئه وواجباته» (باريس ١٨٤٠م) وتبعه المستشرق (لوفيفر) الذي نشر عام ١٨٥٠م قطعًا مختارةً من ترجمة (سفري) بعنوان «محمد قوانين أخلاقية، ومدنية ودينية» ثم جاء من بعدهما (بارثلمي سانت هيلير) في كتابه «محمد والقرآن» والذي نشر بباريس، نشر ديديه ١٨٦٥م .

هذا من حيث الإطار الذي سيقت في داخله بحوث ذلك العهد.

وأما من حيث عيوب المضمون فمرجعها إما إلى ترجمات غير صحيحة، وإما إلى تلخيص سيء، وإما إلى الأمرين معًا، وهو ما نجده واضحًا لدى المستشرق (جول لابوم) في كتابه «تحليل آيات القرآن » باريس ١٨٧٨م وهو مع ذلك أقل الأعمال التحليلية في هذا المجال بعدًا عن التمام .

بَيْدَ أنه إلى جانب تكرار الآيات تحت عناوين مترادفة، وبرغم الأخطاء المختلفة عن

---

(١) المقدمة ص ٣ .

ترجمـة (كازيمرسـكي) الـتي اضطر جـول لابوم أن يسـتخدمها لجهلـه بالعربيـة ـ فإن العنـاوين التي أراد بها تلخيص الآيـات لا تتفق مع النصوص التي يقلـب معناها أحيانًا ـ ويحس المرء في بعض المواضـع أن القرآن يدفع النـاس إلى الأنانيـة ، وإلى الثأر، وأنـه قد أباح لهم الغدر .. والخيانة، والحنث في اليمين، إلى غير ذلك مما يُعيينا حَصْرُه[١] .

فهل في أخـلاق القرآن مثـل هذا ومثل تلـك الجرائم وقـد جـاء لعلاجهـا والرجوع بـالفطرة الإنسـانية إلى صفائها ونقائهـا. هـذه كـانت طريقـة علمـاء الغرب مع المنهج القرآني الأخلاقي.

ولذلك بدا لنـا من الضروري أن نتناول الموضوع مـن جديد، وأن نعالجه تبعًا لمنهج أكثر سـلامة، من أجـل تصحيح هذه الأخطـاء وملء هذه الفجـوة في المكتبـة الأورُبية وحتـى نُري علمـاء الغـرب الوجـه الحقيقي للأخـلاق القرآنيـة ، وذالكـم في الواقع هو هدفنا الأساسي من عملنا هذا[٢] .

بيد أننـا بالرجوع إلى مكتبتنـا الإسلامية نفسـها ، لاحظنـا أنها لم تعرف حتى الآن سِوَى نوعين مـن التعـاليم الأخلاقيـة: فهي إمـا نصـائحُ عمليـة، هدفهـا تقويم أخلاق الشـباب، حين توحي إليهـم الإقتناع بالقيمـة العليـا للفضيلـة[٣] . وإما وصـفٌ لطبيعة النفـس وملكاتهـا، ثم تعريفٌ للفضيلـة وتقسـيمٌ لهـا، مرتبٌ في غـالب الأمـر بحسـب النموذج الأفلاطوني، أو الأرسطي[٤] . وكثيرًا ما نرى المنهجين يتعاقبان في قلم كاتب

---

(١) انظر هامش مقدمة د. دراز ص ٣ .

(٢) وبعد تعريب الكتـاب ملأ هذه الفجوة في المكتبة العربيـة أيضًا حين وفق الله الدكتـور عبد الصبور شـاهين إلى تعريبه بعد ربع قرن .

(٣) نذكر من خير الكتب التي من هذا النوع رسالة ابن حزم «مداواة النفوس» طبعة آدم بالقاهرة .

(٤) خير كتـاب تبع هذا النظام، وأشـهره هو كتاب ابن مسـكويه «تهذيب الأخلاق» [دراز] وقد نشـرته الجامعة الأمريكية ببيروت عام ١٩٦٦م بتحقيق قسطنطين زريق (د. شاهين)

واحد[1] ، وإذن فلم يكن هنالك سوى كتبٌ إنسانيةٌ محضة، أجهد مؤلفوها أنفسهم فاستودعوها ثمراتٍ تأملاتهم ودراساتهم الفلسفية، و لم يظهر فيها النص القرآني كليةً ، أو هو لا يكاد يظهر إلا بصفة ثانوية .

فلم تكن الأخلاق القرآنية إذن الموضوع الرئيسي للدراسة، والتقنين، لدى المسلمين أو المستشرقين ، لا من الناحية النظرية، ولا من الناحية العملية ونحسب أن من الواجب أن نضيف بعض التحديد إلى هذا التأكيد المزدوج، ليصبح أكثر دقة، ويخلص من كل لَبْسٍ أو غُموض[2] .

موقف عُلماء المسلمين :

أ ـ في المجال النظري:

ولسنا ندَّعي ابتداءًا، أن بحوثنا في المجال النظري تخوض في أرض بكر . لم يرتدها أحدٌ قبلنا ، فإن العلماء المسلمين قد أعملوا قرائحهم منذ عهدٍ مبكر في هذا الموضوع: علماء الكلام، وعلماء الأصول، فكروا جميعًا في مقياس الخير والشر (أو بحسب تعبيرهم: مسألة الحسن والقبيح) وفكر الفقهاء في شروط المسؤلية، وفكر الأخلاقيون والصوفية في فاعلية الجهد، وإخلاص النية والقصد .

ولكنا إذا صرفنا النظر عن أن هذه الأفكار والتي قد بقيت متناثرةً في مختلف المذاهب التى تمسّ الأخلاقية من قريب أو من بعيد، والتي لم تُعنَ دائمًا بوجهة النظر الأخلاقية بمفهومها الخاص .

ـ فإن النظرية الأخلاقية التى يقدمها هؤلاء تصدر في جانب كبير منها ـ على الأقل

---

(١) يظهر هذا لدى الأصفهاني في «الذريعة» وبصورة أكثر كمالاً، وإمتدادًا لدى الغزالي في كثير من كتبه، وبخاصة موسوعته الإسلامية :« إحياء علوم الدين» [دراز] .

(٢) د ـ دراز ـ المقدمة ص ٤ ، ٥ .

- عن روح المذهب الذي ينتمي إليه مؤلفوها ، إن لم تكن من محض نظراتهم الشخصية، لأن القرآن لا يرد ذكره فيها إلا بصفة مكملة، شاهدًا أو برهانًا على فكرة أخرى سبق الأخذ بها .

ب - وأما في المجال العملي:

فمن الحق أن الغزالي - كما نعلم - قد حاول في كتابه **«جواهر القرآن»** أن يحلل جوهر القرآن، وأن يرده إلى عنصرين أساسيين، يتصل أحدهما بالمعرفة، ويتصل الآخر بالسلوك. وانتهى إلى أن حُصِرَ في القرآن من النوع الأول سبعمائةوثلاثًا وستين آية، كما حصر من النوع الثاني سبعمائة وإحدى وأربعين آية[(١)] .

ومن المؤسف أن هذا النوع من الحصر والتصنيف، الذي يعد خُطوةً أُولى في سبيل إعداد المواد للتشييد - لم يعقبه ما يقتضيه من عمل ضروري يهدف إلى إعلاء البناء. ومع ذلك ، يجب أن نعترف بأن اختيار المواد في العمل قد تم بوجه عام تبعًا لقاعدة، وأن الآيات المختارة في القسم العملي تتوافق غالبًا مع موضوع دراستنا.

وليس الأمر على هذا النحو بالنسبة إلى ما استخرجه القاضي أبو بكر الجصاص الحنفي (المتوفي عام ٣٧٠هـ[(٢)] في كتابه **«أحكام القرآن»** طبعة اسطنبول سنة ١٣٣٨هـ ، وإلى ما استخرجه القاضى أبو بكر بن العربي، المالكي، (المتوفي عام

---

(١) فمجموع هذه الآيات يَرْبو على ألف وخمسمائة آية، تمثل أقل من ربع القرآن بقليل وما عدا ذلك لا يُعالج في رأيه سوى مسائل تكميلية، وشأنها - على ما قال - شأن الصدفة التي تغطي المادة الثمينة في الكتاب، وقد دخل هذا العمل القديم مع بعض تعديلات يسيرة - إلى اللغة الفرنسية ، على يد كاتب تركي، هو الجنرال محمود مختار كثير جوغلو، في كتاب بعنوان : « الحكمة القرآنية - آياتٌ مختارة - باريس ١٩٣٥م، وقد نشر المؤلف على هذه الصورة كتاب الغزالي مختصرًا (ألفاً ومائتا آية، بدلاً من ألف وخمسمائة آية) بعد أن خلط خلطًا تامًا كلا عنصريه بالآخر، حتى إنه ألغى عناوين السور، وقد كانت من قبل متميزة - [د/ دراز هامش ص ٥ المقدمة] .

(٢) أحمد بن علي الرازي، أبو بكر الجصاص، فاضل، من أهل الري، سكن بغداد، ومات فيها، انتهت إليه رياسة الحنفية، وخوطب في أن يلي القضاء فامتنع، وألف كتاب « أحكام القرآن» وكتابًا في «أصول الفقه» [المعرب د. شاهين - هامش ص ٦]

٥٤٢هـ)[١] في كتابه المعنون أيضًا باسم : «**أحكام القرآن**» (نشر مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٣١ هـ). وكذلك بالنسبة إلى ما استخرجه ملا أحمد جيبون الهندي الحنفي، (المتوفي عام ١١٣٠) في كتابه «**التفسيرات الأحمدية في بيان الآيات الشرعية**» (بومباي ١٣٢٧هـ) .

ولم يقتصر الأمر في هذه الكتب على أن نجد النصوص القرآنية ذات المغزى الأخلاقي، وقد غرقت بطريقة غامضة وسط نصوص تتصل بموضوعات فقهية أو أصولية، أو كلامية، أو كونية، أو غيرها. بل لقد رأينا لدى القاضيين آياتٌ مذكورة بمناسبة مسائل، لا يتصل النص بها إلا من بعيد، وقد اعتبرت هذه المسائل ببساطة مناسبةً لذكرها.

وعلى كل حال ، فإن جميع المؤلفين، بما فيهم الغزالي، وقد جمعوا بطريقتهم الآيات القرآنية بترتيب السور ـ جعلوا من مختاراتهم مجرّد جمع لمواد مُتفرقة ، لا ترتبط بينها روح القرابة، ولا يظهر فيها أي تسلسل للأفكار ولذلك، فعندما فقدت الوحدة الأولى لكل سورة لم يستطيعوا أن يكملوا عملهم بإيجاد وحدة منطقية، تربط بين الأجزاء المختارة، أو تصنيف منهجي تقتضيه قاعدة التعليم .

ـ وقد وجدنا هذا النظام المنطقي لدى بعض العلماء الشيعة، من مثل: الشيخ أحمد ابن محمد الأردبيلي (المتوفي عام ٩٩٣هـ) في كتابه:«**درة البيان في آيات الأحكام**»[٢].

---

(١) محمد بن عبدالله بن محمد المعافري، الأشبيلي المالكي ، أبو بكر بن العربي، قاضٍ من حُفاظ الحديث، رحل إلى المشرق، وبرع في الأدب، وبلغ رتبة الاجتهاد في الدين، وصنف كُتُبًا في الحديث والفقه والأصول والتفسير والأدب والتاريخ، ووُلِّيّ قضاء أشبيلية ومات بقرب فارس، ومن مشهور كتبه :«العواصم من القواصم» و«عارضة الأحوذي في شرح الترمذي» و«أحكام القرآن» د. شاهين ـ هامش المقدمة ص ٦ .

(٢) أحمد بن محمد الأردبيلي ـ فاضلٌ من فقهاء الإمامية وزهادهم، نسبته إلى أردبيل بأذربيجان ، ووفاته بكربلاء، ومن كتبه : « مجمع الفوائد والبرهان في إرشاد الأذهان» «وزبدة البيان في شرح آيات أحكام القرآن» وهو ما نقل المؤلف عنوانه مختلفًا ومختصرًا «المعرب» د. شاهين هامش ص ٧ .

ومن مثل الشيخ أحمد بن إسماعيل الجزائري النجفي (المتوفي عام ١١٥٠هـ) في كتابه: «**قلائد الدرر في بيان أحكام الآيات بالأثر**»[١] غير أن هذين الكتابين[٢] اللذين يمكن أن يعدا فهرسًا لنصوص القرآن المتعلقة بالفقه الإسلامي - لا يعالجان الأوامر الأخلاقية إلا نادرًا ..

وهكذا لم ينهض أحدٌ - فيما نعلم - حتى الآن باستخلاص الشريعة الأخلاقية من القرآن في مجموعه، ولم يحاول أحدٌ أن يقدم لنا مبادئها، وقواعدها في صورة بناء متماسك مستقل عن كل ما يربطه بالمجالات القريبة منه، وتلكم هي المهمة التى إنْتدبنا للوفاء بها هنا، بقدر ما تُطيقه وسائلنا[٣] .

تقسيمٌ ومنهج:

يميز الدكتور دراز تحت لفظة (القانون الأخلاقي) - كما يميز جميع الباحثين تحت اسم الجنس - فرعين مختلفين هما : النظرية والتطبيق .

ويقول «والواقع أن دراستنا للنص القرآني قد أوحت إلينا، لا بوجود هذين الفرعين لعلم الأخلاق في القرآن - فحسب، بل لقد كشفت لنا عن أن الصورة التي جاءت بها بلغت درجةً من الكمال لا يُبتغى وراءها شيئًا .

- الجانب العملي : وقد بحثنا في رسالة حديثة النشر[٤] - الأخلاق العملية في القرآن، في علاقتها بالحكمة القديمة، واستطعنا أن نكشف فيها عن ثلاث خصائص

---

(١) أحمد بن إسماعيل الجزائري النجفي، فاضل إمامي، أصله من جزائر خوزستان، واشتهر في النجف، وتوفي فيه، ومن كتبه : « قلائد الدرر في بيان أحكام الآيات بالأثر» «المعرب» د. شاهين ص ٧ .

(٢) الكتابان مطبوعان في فارس، وقد رتبت موضوعاتها تبعًا للنظام المعتاد لكتب الفقه، وتوجد منهما نسخةٌ لدى صديقنا وزميلنا القاضي الشيخ أحمد محمد شاكر - بالقاهرة «المؤلف» د. دراز هامش ص ٧ .

(٣) مقدمة المؤلف د. دراز ص ٧ .

(٤) يشير المؤلف إلى رسالته الفرعية «مدخل إلى القرآن الكريم» .

نوجزها فيما يلي :

ـ فالقرآن ـ من حيث كونه حافظًا لما سبقه، واستمرارًا له ـ قد تميز عنه بذلك الإمتداد الرحب الذي ضم فيه جوهر القانون الأخلاقي كُلِه، وهو الذي ظل مُتفرقًا في تعاليم القديسين والحكماء، من المؤسسين والمصلحين، الذين تباعد بعضهم عن بعض، زمانًا ومكانًا، وربما لم يترك بعضهم أثرًا من بعده يحفظ تعاليمه. ولعل هذا الجانب هو السمة البارزة من سمات القرآن ، وإن لم تكن أثمن سماته ولا أصلها ثم يوضح الدكتور دراز أصالة هذا التعليم الأخلاقي في أجلى صورها، في طريقته التي سلكها لتقديم تلك الدروس المختلفة عن الماضين، وتقريبها، بحيث يصوغ تنوعها في وحدة لا تقبل الإنفصام، ويسوقها على اختلافها في إطار من الإتفاق التام، وذلك لأنه بدأ بأن نزع عن الشرائع السابقة كل ما كان في ظاهر الأمر إفراطًا أو تفريطًا، وأخرى إلى جانب آخر ـ دفعها جميعها في إتجاه واحد، ثم نفخ فيها من رُوحٍ واحدة، بحيث صار حقًا أن ينسب إليه بخاصة مجموع هذه الأخلاق .

وأعجب من ذلك وأعظم أصالة جانبه الخلاق، فليس يكفي ـ في الواقع ـ لكي نَصِفُ أخلاق القرآن ـ أن نقول : «إنما حفظت تراث الأسلاف ودعمته، وإنما وفقت بين الآراء المختلفة التي فرقت أخلاقهم، بل ينبغي أن نضيف: أن الأخلاق القرآنية قد رفعت ذلكم البناء المقدس وجملته، حين ضمت إليه فُصولاً كاملة الجدة، رائعة التقدم، ختمت إلى الأبد العمل الأخلاقي[1] .

---

(١) انظر كتابنا «مدخل إلى القرآن ـ القسم الثاني ـ الفصل الثاني، وسوف تجد هنالك أمثلةً عديدةً مادية، تشهد بوجود هذا الجوانب الثلاثة فيما أضافه القرآن: إجمالٌ لما سبق، وتوفيقٌ بين وجهات مختلفة فيه، وإكمالٌ لجوانب ناقصة [د. دراز] .

منهج الدكتور دراز:

ويوضح الدكتور دراز منهجه بقوله «ولسوف يكون علينا في هذه الدراسة أن نُعالج الأحكام العملية التي جاء بها القرآن في ذاتها، وفي مرحلتها النهائية من تطورها، وحَسْبُ القارئ بعد ذلك أن يتصفح النصوص التي نُوردها في نهاية هذا الكتاب، ليدرك رحابة هذا النظام وجماله . ولسوف يختلف منهجنا كثيرًا في عرض هذا الجانب عن المنهج الذي اتبعه سابقونا . فلما كنا ـ أولاً ـ لا نرى من اللازم أن نستوعب النصوص والآيات ذات الإتصال بالموضوع، فقد اكتفينا بأن سقنا بعضًا منها؛ ذا دلالة كافية على القواعد المختلفة للسلوك ، ثم حاولنا من بعد ذلك أن نتجنب التكرار بقدر الإمكان .

واتبعنا أخيرًا نظامًا منطقيًا بدلاً من إلتزام نظام السور (الذي اتبعه الإمام الغزالي) أو النظام الأبجدي للمفاهيم (كما فعل جول لابوم) . فالنصوص في عملنا هذا مجمعةٌ في فصول، بحسب نوع العلاقة التي سبقت القاعدة لتنظيمها، وقد مُيزتَ في داخل كل طائفة عدة مجموعات صغيرة من النصوص.

وضعنا لها عنوانًا فرعيًا يُوجز التعليم الخاص الذي يُستقي منها، بحيث يُتاح للقارئ أن يجد الحكم الذي يبحث عنه بكل سهولة .

وتنظيم النصوص بمجموعها على هذا الوجه يبني لنا منهجًا كاملاً للحياة العملية. كما رسمها القرآن: كيف ينبغي على الإنسان أن يسلك مع نفسه، وفي أسرته، ومع الناس أجمعين؟.. وما المبادئ التى يجب أن تحكم العلاقات بين الحاكمين والمحكومين، وبين الدول أو المجتمعات؟.. وكيف يؤدي الإنسان العبادة لله؟.. وكل ذلك قد قيل بطريقةٍ واضحة ومحددة.

هذا الطابع الإجماليّ يجد ما يُكمله في طابع آخر، بمنحه قيمته العليا، ذلك أن القرآن

ـ بعد أن رسم لكل مجال من مجالات الحياة خط سُلوكه يقدم لنا أُطرًا مُعدةً على هيئة دوائر مشتركة المركز، كل واحدة منها قابلةٌ لأن تتسع، وتنمكش، في توافق مع المجموع ، بل تتداخل هذه الدوائر بالتبادل، دون أن تطغى إحداها على الأخرى.

ويطرح الدكتور دراز هذا السؤال:

كيف استطاع القرآن أن يحدث هذا الأثر المعجز؟.

ويجيب بقوله: «لقد كان منهجه غايةً في البساطة، حين تخير لبيان قواعده أقوالاً ذات تأثير خاص، وهي أقوال تقف دائمًا في منتصف الطريق، بين المجرّد: غامضةً ومبهمة، وبين الحسِّ المفرط في الشكلية. وكذلك نجد أن الأُطر التي يبينها صارمةٌ ومرنةٌ في آن.

فمن حيث وضوح المضمون نجد أن وضوح كل قاعدة يُوجد نوعًا من المجاز، يقف في مواجهة الفوضى، وجموح الهوى، ولكنها من حيث عدم تحديد هذا المضمون تترك لكل فرد حرية اختيار الشكل الذي يكيف في نطاقه مثله الأعلى، طبقًا للشروط التي تمليها التجربة، كما يختار الشكل الذي يُوائم به بين الواجب العاجل والمقتضيات الأخرى التي تمليها الأخلاقية. فهما أمران: تكييفٌ ومواءَمة، ينبغي أن يتما بوساطة جهد راشد، بعيد عن الإرخاء، وعن الغلواء، التي لا ضابط معها .

وبهذه الطريقة استطاعت الشريعة القرآنية أن تبلغ كمالاً مزدوجًا ، لا يمكن لغيرها أن يحقق التوافق بين شقيه: لطفٌ في حزم، وتقدمٌ في ثبات، وتنوعٌ في وحدة.

ـ وبهذه الطريقة أيضًا، أتاحت الشريعة القرآنية للنفس الإنسانية أن تطمئن إلى سعادة مزدوجة ، تجمع أيضًا بين النقيضين: خُضوعٌ في الحرية، ويُسرٌ في المجاهدة، ومبادأةٌ في الإستمرار، وقليلٌ من فهم تلك الحكمة الرفيعة .

- ومن ثم أخذ بعضهم على الإسلام أنه لم يحدد مثلاً الطريقة التي يُستشار بها الشعب في القضايا العامة، و لم يحدد شكل الدولة المسلمة، وطريقة اختيار رئيسها أهيَّ إقتراعٌ شامل، أم مقتصرٌ على الصفوة؟ وهل هي جمهورية، أو ملكية؟ الخ .

- لكننا قد نصادف بين المحكومين أنفسهم أُناسًا يودون أن يتولى المشرع بنفسه تحديد كل شيء وتقنينه، فإذا افترضنا أن هذا المشروع يمكن أن يتحقق، فكيف نفسر إقتضاءً من هذا القبيل بالغًا أقصى مداه إلا بأنه تلمسٌ لأدنى جهد عقليّ وأخلاقيّ..؟.. إن لم نقل، إنه تنازلٌ محضٌ وبسيط عن الشخصية!!.

- إن القرآن لا ينقض ذلك الإتجاه إلى حصر كل القواعد، كما لا ينقض الإتجاه المضاد، فهل كان هذا التصرف الحكيم، وذاك الموقف الوسط الذي يقف فيه الفرد دائمًا بمعزل عن طرفيْ نقيض – مجرد اتفاق؟ أو تحكمًا واعتسافًا؟ أو أن له غايةً معينة؟

إننا لكي نقتنع بأن القرآن في إيجازه ، وفي تفصيله ، يهدف إلى تلك الحكمة التشريعية المنزهة - حسبنا أن نتذكر الواقعة التالية :

«فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال:«**يا أيها الناس، إن الله قد فَرَضَ عليكم الحَجَّ، فَحُجُّوا** ، فقال رجل: أكل عام يارسول الله؟. فسكت حتى قالها ثلاثًا، فقال رسول الله ﷺ : **لو قلت نعم لَوَجَبَتْ، ولما استطعتم**، ثم قال: **ذَرُوني ما تركتم**[1] **فإنما هَلَكَ من كان قبلكم بكثرة سُؤَالهم وإختلافهم على أنبيائِهم ، فإذا أمرتكم بشَيءٍ فأتوا ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيءٍ فَدَعُوهُ**»[2] .

- وفي رواية أخرى أكثر تصريحًا، رواها بن جرير موقوفة عن أبي ثعلبة الخشني،

---

(١) يريد أن يقول: «لاتستثيروا الوحي، ولاتفتشوا عن شرائع لتضعوها حين لا تجدوها.

(٢) رواه مسلم ، وورد بمعناه في ابن حبان ـ ذكره السيوطي في الدور المنثور ٢ / ٣٣٥ . وهو عن أبي هريرة ك/ الحج ب/ فرض الحج مرة في العمر (٢٣٨٠).

ورويت مرفوعة إلى النبي ﷺ قال : «**إن الله تعالى فرض فرائض فلا تُضيعُوها، وحد حدودًا فلا تعتدوها، وحرم أشياءًا فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمةً لكم، غير نسيان، فلا تبحثوا عنها**»[1] .

ويذكر ابن حبان أن ظُروفًا كهذه الظروف كانت مناسبةً لنزول قوله تعالى : **﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ(١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾**[2] .

ـ هذه الإستبعاد للمبالغة والإفراط في(كيف؟ وكم؟) من القواعد القرآنية ـ إجراءٌ إتخذ صراحة، كيما يتسنى لكل فرد أن يُمارس طاقته العقلية. والجسمية والخلقية، بطريقةٍ تختلف عن غيره. فهذا هو ما يتصل بالأخلاق العملية، والسمات العامة التي تحددها ، فلنمض إلى الأخلاق النظرية:

ـ الجانب النظري:

وهنا يفارق منهج الدكتور دراز المنهج العام أيضًا ، فيقول : ذلك أن ما يهم غالبية علمائنا في المقام الأول هو الجانب الاقتصادي، أو الشرعي، ونحن بادئ ذي بدء، نركز إهتمامنا على المجال الأخلاقي، واضعين كل مسألة في المصطلحات التي تصاغ بها لدى الأخلاقيين المحدثين ـ ونحن من ناحية أخرى نتخذ من القرآن ذاته نقطة انطلاق، بحيث كان دأبنا الدائب أن نستخرج منه الإجابة عن كل مسألة، بالرجوع المباشر إلى النص، وهنا تكمن الصُعوبة؛ فإن النُصوص المتعلقة بالنظرية الأخلاقية . ليست بالكثرة والوضوح اللذين تمتاز بهما الأحكام العملية، غير أن هنا سؤالاً مسبقًا ينبغي أن يُطرح:

(١) حديث حسن رواه الدراقطني وغيره .
(٢) سورة المائدة (الآيتان ١٠١ ـ ١٠٢) .

هل القرآن كتابٌ نظري؟ أو هل يمكن أن يلتمس فيه ما يلتمس، من المؤلفات والأعمال الفلسفية؟.

ويجيب الدكتور دراز على هذا السؤال مبينًا علاقة الفلسفة بالقرآن ، وأن القرآن ليس عملاً فلسفيًا وليس ثمرة فلسفة فيقول رحمه الله :

ـ إن الفلسفة بالمعنى المألوف للكلمة هي عمل فكر منطقي، معتمدٌ على مجرد ومضات الذهن الطبيعي، ينتقل فيه المفكر من حكم إلى آخر، بمنهج معين ، ... للتوصل إلى إقرار نظام معين، قادرٌ على تفسير الأشياء في عمومها، أو تفسير وضع معين لأحد هذه الأشياء . وبدهيٌ أن هذا الجهد العقلي، وهذه الخطوة التدريجية ـ لا يتناسبا مع ضوء وحي، يغمر النفس دون بحث أو توقع، ويقدم لها على حين فجأة جملة من المعرفة، لا تسبق فيها المقدمات نتيجتها ، ولا المقدم تاليه .

ـ فليس القرآن عملاً فلسفيًا، بمعنى أنه ليس ثمرة فلسفة، وهو لا يستخدم طرق الإكتساب الفلسفي، بالإضافة إلى أنه لا يتبع كذلك طُرق التعليم التي يتبعها الفلاسفة، وهي طرائق المنهج العقلي، التي تقوم على: [التعريف والتقسيم، والبرهنة ، والإعتراضات، والإجابات)، وهي كلها أُمورٌ متلاحمةٌ دون جدال، ولكنها لا تؤثر إلا على جانب واحد من النفس، هو الجانب العقلي، على حين أن للقرآن منهجه الذي يتوجه إلى النفس بأكملها، فهو يقدم إليها غذاءًا كاملاً، يستمد منه العقل والقلب، كلاهما، نصيبًا متساويًا .

ـ وهكذا يفارق التعليمُ القرآنيُّ التعليمَ الفلسفيَّ، سواءًا في المصادر، أو في المناهج. فهل هما يتفارقان كذلك في موضوعهما؟. وفي هدفهما؟ إن القول بهذا معناه أننا نقرر ـ بعلم أو بلا شُعور ـ أن القرآن ليس كتاب دين؛ ذلك أنه مهما تكن الفروق بين الفلسفة والدين ـ والتي تتمثل في أن الأولى، تستمد منبعها من إرتياب العقل، على حين

أن الدين يستمده من الضوء الكامل للوحي؛ أو أن كليهما قد ينقاد أحيانًا[1] وراء سراب التخيل، وأن أحدهما (وهو الفلسفة) ليس سوى معرفة محضة وبسيطة، والآخر إقتناعٌ عميق، ومؤثرٌ، وأخّاذ - مهما تكن الفروق بينهما فإن للفلسفة في جانبها الأسمى، وللدين في جميع أشكاله، موضوعًا مزدوجًا مشتركًا، هو : حل مشكلة الوجود، أصله ومصيره، وتحديد الطريقة الحكيمة والمثلى للسلوك ولتحصيل السعادة.

أوجه التشابه بين القرآن والفلسفة:

يبين الدكتور دراز أن أفضل ما يدل على التشابه بين المادة القرآنية بخاصة، وبين الفلسفة - أن نلحظ أن القرآن حين يعرض نظريته عن الحق، وعن الفضيلة لا يكتفي دائمًا بان يُذكِّر بهما العقل، ويثير أمرهما باستمرار أمام التفكر والتأمل، وإنما يتولى هو بنفسه التدليل على ما يقدم ، ويتولى تسويغه .

وفضلاً عن ذلك، فإن طبيعة إستدلالاته، والطريقة التي يسوق بها الدليل؛ قد اختيرت كلتاهما على وجه يُفحم أعظم الفلاسفة دقة، وأشد المناطقة صرامة، في الوقت الذي تلبي فيه أكثر المطالب واقعية، كما تروق أرقى الأذواق الشعرية وأرقها، وأبسط المدارك وأقلها.

- فليس يكفي إذن أن نقول: إن القرآن لا ينكر الفلسفة الحقة، وليدة التفكير الناضج، وعاشقة اليقين، ولا يكفي أن نقول: إنه يوافقها ويشجعها، وإنه يرتضي بحثها المنصف، بل ينبغي أن نضيف إلى ذلك: إنه يُمِدُّها بمادةٍ غزيرة في الموضوعات ، وفي الإستدلالات .

- ولا ريب أن القرآن لا يقدم إليها هذه الحقائق الأساسية مجتمعة في صورة نظام موحد بَيْدَ أننا نتساءل: إذا كان نظام كهذا لم يوجد كاملاً، أفلا يوجد في هذا الكتاب جميع

(١) يتحدث الدكتور دراز هنا عن الدين بعامة، لا عن الأديان المنزلة . [د. عبد الصبور شاهين] .

العناصر الضرورية، والكافية لبنائه؟ الحق أنه لا مِراء في أن القرآن مشتملٌ على جميع العناصر الأساسية. للفلسفة الدينية : أصل الإنسان، ومصيره، وأصل العالم ومصيره، ومبادئ السبب والغاية، وأفكارٌ عن النفس، وعن الله ... الخ.. وإن دراسة مثل هذا الموضوع لجديرةٌ أن يُخصص لها عملٌ مستقل .

القرآن يؤسس النظرية الأخلاقية :

ويتساءل الدكتور دراز هل القرآن تحدث عن أسس النظرية الأخلاقية ؟

ذلكم هو السؤال الذي طرحه المؤلف في دراسته هذه، والذي خصصه بأعظم قدر من جهده المبارك ويشرع في بيان ذلك بقوله رحمه الله :

ـ وإنا لنعتقد أن بُوسْعِنا أن نعلن منذ الآن أننا قد وجدنا لهذا السؤال إجابةً واضحة، وإيجابية تمامًا. إن القرآن لا يكتفي في الواقع بأن يضع قاعدة السلوك، على وجه أكثر شمولاً وتفصيلاً، كما لم يفعله أي تعليم عملي، فقد وجدناه يُرسي تحت هذا البناء الضخم قواعد من المعرفة النظرية أعظم متانة وأشد صلابة. ولنطرح عليه مثلاً السؤال التالي:

س : على اي أساس ترتكز شريعة الواجب القرآني؟ ومن أي مَعِينٍ تستقي سلطانها؟

ـ ولسوف يجيبك: بأن التمييز بين الخير والشر هو إلهامٌ داخليٌ مركوزٌ فِي النفس الإنسانية، قبل أن يكون شِرعةً سماوية، وبأن الفضيلة ـ فِي نهاية المطاف ـ إنما تتخذ مرقاتها من طبيعتها الخاصة، ومن قيمتها الذاتية وبأن العقل والوحي ـ على هذا ـ ليسا سوى ضوءٌ هادٍ، مزدوجٌ ، لموضوع واحد، وترجمةٌ مزدوجةٌ ، لواقع واحد أصيل، تمتد جذوره في أعماق الأشياء .

ـ واسأله بعد ذلك: عن صفات هذه الشريعة، وامتداد سلطانها؟

ولسوف يقول لك: إنها شريعةٌ عامة، وأبدية، تكفل للبشرية مطامحها المشروعة، ولكنها تعترض بكل وضوح وتأكيد على شهواتها الجامحة والمتحكمة.

وزد في سؤاله عن المسئولية الإنسانية، وعن شروطها، وحدودها، وعن الوسيلة الناجعة لكسب الفضيلة، وعن المبدأ الأسمى الذي ينبغي أن يحد الإرادة عن العمل؟.

أو سَلْهُ عن أي مبدأ عام لا يملك أي أخلاقي بصيرٌ بعمله أن يغفله؟ ولسوف تجد فيه لكل سؤال حكمًا محددًا أو قاطعًا ، يفرض نفسه إجابة. فريدة، من شأنها أن تؤلف بين أكثر المشاعر نباهة واتزانًا .

ـ والذي استولى في النهاية على إعجابنا، هو ما رأينا من التباين المذهل بين الطريقة التي يقدم بها القرآن إجاباته على هذه الأسئلة، وطريقة غيره .

فعلى حين أن هذه الحقائق الأساسية قد برزت إلى الوجود في ضوء القرآن اللامع، منذ أربعة عشر قرنًا، نجد أن مجتهدي المفكرين ممن يبحثون عن هذه الحقائق خارج ضوء القرآن يصدرون دائمًا عن تردد وارتياب، ولا يصلون إلى أبعاضٍ منها إلا بعد جهد جهيد ، دون أن يتوقوْا الوقوع في أخطاء فادحة .

دراسة مقارنة :

يقول الدكتور دراز «يجب أن نعترف بأن تصورنا للخطة الأولية لهذا العمل كانت في شكل محدود، بحيث لم نكن نتصور شيئًا سوى القانون الأخلاقي المستمد من القرآن، وربما من تعليم النبي ﷺ ، المبَيِّن الأول، الثقة .

غير أن الأستاذ (ماسينون) ـ الأستاذ في الكوليج دي فرانس، في معهد الدراسات العليا بباريس ـ قد أبدى لنا رغبة في أن يرى هذه الدراسة، تتناول في نفس الوقت

بعض نظريات المدارس الإسلامية المشهورة، وهو في سبيل هذا الهدف قد مكّنا مما ضمت مكتبته من مؤلفات نادرة وثمينة، مخطوطة أو مطبوعة .

ـ كما أن الأستاذ رينيه لوسن الأستاذ بكلية الآداب، بجامعة باريس ـ قد أقترح علينا أن نقارن النظرية الأخلاقية المستمدة من القرآن ببعض النظريات الغربية. وقد استجبنا بحمد الله لما أبديا من مقترحات موفقة، يبدو عملنا اليوم بفضلها أرحب مدى، وأعظم توفيقًا.

فعملنا على هذا النحو نوع من التأليف، تلتقي فيه الأفكار الأخلاقية، من الشرق بنظيرتها من الغرب، في مقارنةٍ واعيةٍ محايدة، بريئة من كل فكرة مسبقة، ومن كل هوى متعصب لمدرسة بعينها ، رائدها الوحيد في كل مناقشة أن تحتكم إلى العقل ، الذي يُستهدى بالأسانيد الوثيقة وفي ختام مقدمته الرائعة يتمنى تحقيق أملاً عزيز المنال فيقول:

ـ ترى هل يكون هذا التقارب بين مختلف الثقافات إستهلالاً في المجال العملى، يعقبه فهمٌ أرحب مجالاً، ونزوعٌ إلى الإنسانية أكثر إمتدادًا ، حيث تتجمع القلوب، من هنا وهناك ، وتتشابك الأيدي لخير بني الإنسان ؟!!



الفصل الثالث

دستور الأخلاق عرض وتحليل

١ ـ الهدف الرئيسي للرسالة .

٢ ـ القرآن الكريم نقطة ارتكاز .

٣ ـ الفكرة التى تهيمن على الرسالة.

٤ ـ لا مكان للأخلاق بدون عقيدة .

٥ ـ فكرة المسئولية ومظهرها الأخلاقي .

٦ ـ فكرة الجزاء وطابعها الإصلاحي .

٧ ـ النية والبواعث وموقف القرآن .

٨ ـ طبيعة الجهد الإنساني وموقف القرآن .

٩ ـ العلاقة بين الجهد والتيسير وموقف القرآن .

١٠ ـ الأخلاق العملية.



دستور الأخلاق عرضٌ وتحليل(*)

والآن هل يسمح لنا القارئ بأن نقدم له خُلاصةً سريعة للأفكار الرئيسية في الكتاب؟

١ـ الهدف الرئيسي للرسالة:

إن الهدف الرئيسي من هذا البحث هو إبراز الطابع العام للأخلاق التي تستمد من كتاب الله الحكيم، وذلك من الناحيتين النظرية والعلمية، أما عن البحث في الأُسس النظرية التي تقوم عليها المبادئ الأخلاقية في القرآن الكريم، فإن المؤلف يعبر لنا، دون مواربة، عن شعوره بأنه كان يضع قدميه لأول مرة على أرض لم تطأها قدمٌ من قبل. لكن وعورة المسالك التى عزم ـ بمشيئة الله ـ على الخوض فيها لم تضعف من عزيمته، بل كانت حافزًا له على تحدي الصعاب في سبيل خدمة دين ا لله الحنيف .

وهو لا ينكر أن عددًا من فقهاء المسلمين قد بحثوا في مقاييس الخير والشر، وأن عددًا من رجال الشرع قد تكلموا في شروط المسئولية وأن بعض الأخلاقيين قد ناقشوا جدوى «الجهد الإنساني» وضرورة «النية الطيبة» التي لم تقتصر على معالجة الأخلاق، ، بل غلبت عليها آراءٌ أخرى في الفقه والشريعة وعلوم الدين واللغة كما أن النظرية التي أراد هؤلاء المفكرون أن يبرزوها كانت تعتمد إلى حدٍ كبير على الرأي الشخصي، أو كانت تعبر عن اتجاه المدرسة الفكرية التي ينتمي إليها صاحب النظرية، ولم تكن الإستعانة بالآيات القرآنية إلا من قبيل الاستشهاد بها في تأييد هذا المبدأ أو ذلك أما مؤلفنا فقد وضع نفسه منذ اللحظة الأولى على أرض الأخلاق وأخذ يُعالج

(١) بناءً على رغبة الأستاذ الدكتور السيد محمد بدوي نقدم للقارئ هذا العرض الشائق الشامل الذي قدم به الدكتور السيد بدوي الرسالة لقراء العربية .

المسائل الأخلاقية الواحدة بعد الأخرى، بحسب المفاهيم والمعايير التي تُعالَج بها عند علماء الأخلاق المحدثين .

٢ـ القرآن الكريم نقطة إرتكاز:

ومن ناحية أخرى تجده يُعنى بمناقشة الحلول التي جاء بها بعض المفكرين في الشرق أو الغرب، من آرائهم ومبادئهم وسيلةً للمقارنة، وهو أثناء ذلك كله يجعل من القرآن دائمًا نقطة إرتكازه ويعتمد في استخلاصه للإجابة الشافية على المسائل المطروحة إعتمادًا مباشرًا على النصوص القرآنية .

وهنا، في الحقيقة، وجه الصعوبة. إذ أن القرآن الكريم ـ كما نعرف ـ ليس كتاب فلسفة ، إذا كنا نقصد بالفلسفة مجموعة من الأفكار نابعةً من العقل وتتسلسل وِفْقَ منهج معين، ويكون الغرض منها تكوين نسق من المبادئ لتفسير طائفة من ظواهر الطبيعة أو الكون، إذا كنا لا نستطيع أن نجد في القرآن هذا النسق لأول وهلة، ألا توجد، مع ذلك ، وسيلةٌ لجمع العناصر والمواد الأولية اللازمة لبنائه؟ لقد سأل المؤلف نفسه هذا السؤال بالنسبة «للمشكلة الأخلاقية» ووجد له من خلال بحثه الحل الإيجابي، فبعد أن نحى جانبًا الأحكام الأخلاقية الخاصة أخذ يتأمل في النص القرآني الكريم باحثًا عن سمات «الواجب» وعن طبيعة السلطة، التي ينبعث عنها «الإلزام» أو التكليف ، وعن درجة «المسئولية» الإنسانية وشروطها، وعن طبيعة «الجهد» المطلوب للعمل الأخلاقي، والمبدأ الأسمى الذي يجب أن يحفزه «الإرادة» العمل .

وفي كل من هذه المسائل استطاع المؤلف أن يستخلص عددًا من الصيغ العامة التي تحدد رأى القرآن وتستوفي الناحية النظرية . وكان هدفه الإجابة على هذا السؤال الجوهري: كيف يصور القرآن عناصر الحياة الأخلاقية؟ وعندما يحتدم النزاع بين المدارس الفكرية كان الإحتكام في جميع الحالات إلى نصوص الكتاب المنزل للاهتداء بها في الأخذ برأي معين دون سواه .

٣ـ الفكرة التي تهيمن على الرسالة:

وتهيمن على الكتاب من أوله إلى آخره فكرةٌ رئيسية، وهي أن الحاسة الخلقية انبعاثٌ داخليٌ فطري، وأن القانون الأخلاقي قد طبع في النفس الانسانية منذ نشأتها ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[1] والواقع أن الإنسان العادي يستطيع أن يميز، إلى حد ما، وفي كل ما يقوم به من أنواع السُلوك، بين ما هو «خيرٌ» وما هو «شر» وبين ما هو «محايدٌ» لا ينفع ولا يضر، وذلك مثلما يميز في عالم المحسوس بين «الجميل» و«القبيح» و«المجرد» من كل تعبير. ولا يقتصر الأمر فقط على «المعرفة» بل إن مظهر الفعل الحسن أو الفعل القبيح يثير فينا مشاعر جدّ مختلفة، فنمتدح بعض أنواع السلوك، ونستهجن بعضها الآخر.

غير أن هذا القانون الأخلاقي المطبوع فينا ناقصٌ وغير كافٍ، ليس فقط لأن العادة، والوراثة، وأثر البيئة، والمصالح المباشرة تفسد نوازعنا التلقائية، وتلقي أنواعًا من الظلال على نور بصيرتنا الفطرية، وليس فقط لأن شواغل الحياة في الدنيا تستوعب الجزء الأكبر من نشاطنا الواعي، بل إن ممارسة الأخلاق في أحسن الظروف الملائمة تواجه صعوبةً أخرى رئيسية:

وهي أن الضمير إذا اقتصر على مصادره الفطرية وحدها، وجد نفسه عاجزًا في غالب الأحيان، عن أن يقدم، في جميع الظروف «قاعدة» ذات طابع عام تستأثر باعتراف الجميع. فإذا تجاوزنا حدًا معينًا نجد أن «اليقين» الأخلاقي قد ترك مكانه للإحتمالات والتردد والمتاهات .

وهذا هو السبب الذي من أجله بعث الله في الناس، من حين لآخر، نُفوسًا متميزةً ملهمةً بالوحي الربانيّ، ونستطيع على مدى التاريخ الإنساني أن تضطلع برسالة إيقاظ

---

(١) الشمس : ٧.

الضمائر، وإزالة الغشاوة عن النور الفطري الذي أودعه الله فينا. وهذه النفوس المصطفاة ، بتعاليمها الدقيقة التي تلقنها للناس، تعمل على حصر الإختلافات بينهم في أضيق نطاق ممكن، وخاصة بالنسبة لتقدير الحكم الأخلاقي، وهكذا يجد النور الفطري ما يكمله، ويقويه من وحي النور الإلهي «نورٌ على نور» .

غير أن هذا التعليم الإيجابي لا يلقى علينا كأمر تعسفي أو تحكميّ مجردٌ عن كل ما يبرره ويكسبه الصيغة الشرعية، بل نجده على العكس يقدم الينا مُدعمًا بميزتين: فهو من ناحية يُخاطب ضمائرنا ليحصل على موافقتها، ومن أخرى يبرز المثل الأعلى في ذاته ليدعم به شرعيته وهاتان الميزتان شرطٌ مزدوجٌ وضروريٌ لتأسيس مفهوم «القانون الأخلاقي» ذلك أن القانون ـ أي قانون ـ إذا لم يحصل على موافقة الناس فإنه يظل غريبًا عنهم ولا يعترفون به. مثل هذا القانون يستطيع أن «يُرغمهم» ولكنه لا يستطيع أن «يُلزمهم» أخلاقيًا ومن ناحية أخرى إذا لم تكن موافقتنا تقوم أساسًا على «الحقيقة في ذاتها» فإن القانون الذي نخضع له لا يكون إلا حالة «شخصية» أو «نسبية» وكأننا بذلك نجري وراء ظل القانون، أو نستسلم لعبادة وثن .

وهكذا نرى أن «الواجب» يقوم على فكرة «القيمة» التي نستمدها من «مثلٍ أعلى» وأن «العقل» و«الوحي» مظهران لتلك الحقيقة الأساسية التي تُعتبر المصدر الحقيقي «للإلزام الخلقي» .

٤ـ لا مكان للأخلاق بدون عقيدة :

ننتقل الآن إلى فكرة رئيسية أخرى ألح عليها المؤلف وأبرزها بكل وضوح في ثنايا مُؤلفِه وهي: أنه لا مكان للأخلاق بدون عقيدة. والعقيدة هنا تتصل بالأخلاق ذاتها، ومعناها الإيمان بالحقيقة الأخلاقية كحقيقة قائمة بذاتها «تسمو» على الفرد، وتفرض نفسها عليه بغض النظر عن أهوائه ومصالحه ورغباته. غير أن موضوع هذه العقيدة

يمكن تصوره بطريقتين مختلفتين : فعلى حين أن الملحد العقلاني يقف نظره عند فكرةٍ جامدة، أو عند مفهومٍ مجرد، أو عند كيانٍ أخرس لا حياة فيه ـ نجد أن المؤمن يتعرف في هذا النداء الداخلي على صوت معبوده، ويترجم في ثنايا قلبه الرسالة السماوية لخالقه. ونجده خلف الفكرة يلمح حقيقةً حيةً ومؤثرة، ويشعر نحوها بأعمق مشاعر الإحترام ممزوجة بأرق مشاعر الحب هذه الشعلة العاطفية التي تُحركُ «إيمانه العقلي» تغذي، في الوقت نفسه «طاقاته الخلاقة» وهو حين يتوقف أو يسقط لا ييأس منه، أنه سيعاود الوقوف على قدميه ومتابعة المسيرة معتمدًا على تلك القوة الهائلة التي يستمد منها العون، وبذلك يمكن القول إن الأخلاق لا تجد مكانًا أكثر خصوبة، تزدهر فيه، من ضمير المؤمن ويمكن القول ، حقيقةً لا مجازًا، إن «الواجب مقدس» .

واستقلال القاعدة الأخلاقية بالنسبة للفرد قد يجعل من الحياة الأخلاقية «خضوعًا» غير أن الخضوع المطلق يعتبر نفيًا «للحرية» وهو تبعًا لذلك نفيٌ، للأخلاق ذاتها. هذه إحدى النقاط الشائكة التي تعرض لها المؤلف بالتحليل في فصله الأول عن «الإلزام الخلقي» وهو يؤكد أنه لا عذر لنا في القول بأن ذلك الخضوع «شُعوريٌ» و«مقبول» منا بحرية تامة . إذ أننا لو سلمنا أنفسنا عن طواعية للرق، فلا يمنع ذلك أو يقلل من كوننا عبيدًا . وإذن فإن الأخلاق الحقيقية هي التى تضع الضمير الإنساني في وضعٍ متوسط بين «المثالي» و«الواقعي» وتجعله يدمج بينهما . وهذا الدمج يؤدي إلى تغيير مزدوج في كليهما: ففي عالم الواقع يحدث جديد هو الإتجاه نحو الأفضل، كما أن القاعدة المثالية هي الأخرى باحتكاكها بالحقيقة الحسية تعدل نفسها لتلائم الواقع. فإذا احتدم النزاع بين واجبين فقد يتعين أن يخلي أحدهما السبيل أمام الآخر؛ أو تُحتم طبيعة العلاقات المركبة بين الأشياء إيجاد نوع من التوفيق بينهما؟ أو قد يسمح الجانب غير المحدد من القاعدة باختيار حُرٍ يُؤكد إنسانية الإنسان .

وهكذا نرى أن الإلزام الخلقي يستبعد« الخضوع المطلق» مثلما يستبعد «الحرية

الفوضوية» ويضع الإنسان في موضعه الحقيقي بين «المادة الصرف» و«الروح» الصرف.

٥ـ فكرة المسئولية ومظهرها الأخلاقي :

وتنبثق عن فكرة الإلزام فكرة «المسئولية» وهي موضوع الفصل الثاني. وقد شرح المؤلف جوانبها الأخلاقية والدينية والاجتماعية ، ثم أخذ يدرس بالتفصيل المظهر الأخلاقي لفكرة المسئولية . ونلاحظ منذ البداية أنه عُنِيَّ بتأكيد فكرة رئيسية تعتبر محور البحث في هذا الموضوع، وهي أن المسئولية كما أقرها القرآن الكريم تتعلق «بالشخصية الإنسانية» في معناها الكامل فالمسئول ، حسب الشريعة القرآنية، هو «الشخص البالغ، العاقل، الذي بَلَغَتْهُ قواعد الدين بشأن التكاليف، وكان واعيًا لها أثناء سلوكه» وهو مسئولٌ عن أفعاله الخاصة الشعورية، والإرادية، والتي عقد النية على القيام بها. فليس هناك مجالٌ إذن لتحويل فضل العمل أو جزائه من إنسان إلى آخر، وليست هناكٍ مسئوليةٌ وراثية أو جماعية بمعنى أن الجماعة لا يمكن أن تكون مسئولةً عن أفعال اقترفها عضوٌ من أعضائها دون أن تُشارك في هذه الأفعال بطريقة ما.

ومع ذلك فكل مواطن يعيش في مجتمع يحمل جانبًا من المسئولية في وجود بعض الشرور الاجتماعية ولا يقتصر ذلك على تدخله الإيجابي في إحداث هذه الشرور ، أو على القدوة السيئة؛ بل إن مسئولية الفرد تمتد إلى الحالة التي يترك فيها الشرور وتنتشر دون أن يتدخل لمنعها، أو على الأقل لفضحها وإعلان سخطه عليها. فاللامبالاة الاجتماعية تتساوى في التجريم مع الفعل الإيجابي، والامتناع عن إعلان الرأى بشأن المخالف للشرع يعتبر نوعًا من الإشتراك في المخالفة .

غير أن المسئولية تفترض قدرة التحكم في الفعل أو الامتناع عن الفعل. وهنا يثور

سؤالٌ هام : هل الارادة الإنسانية لها بحق حرية الاختيار؟ لسنا في حاجة للتعرض للجدل الذي أثارته المدارس المختلفة حول هذا الموضوع ويكفي في هذا المجال أن نقرر حقيقةً لاجدال فيها، وهي أن كل إنسان عاقلٌ يعتبر دائمًا مسئولاً عن أفعاله الإرادية، وأساس مسئوليته هو تأكيد حريته وقد عبر الفيلسوف «كانت» أحسن تعبير عن هذه الفكرة حين قال في مُؤلفه «أسس ميتافيزيقا الأخلاق» : «يستحيل علينا أن نتصور عقلاً ، في أكمل حالات شعوره، يتلقى بشأن أحكامه توجيهًا من الخارج .. فإرادة الكائن العاقل لا تكون إرادته التى تخصه بالمعنى الحقيقي إلا تحت فكرة الحرية غير أننا نجد الفكرة أكثر وضوحًا في القرآن الكريم: فليس هناك شيءٌ في الطبيعة الداخلية أو الخارجية يستطيع أن يُرغم الإرادة الإنسانية على اختيار مسار غير الذي تختاره بنفسها - وقد يكون النزوع أو الرغبة ، أو المصلحة، أو الإيحاء، قد تكون هذه كلها عواملٌ تحرك الإرادة وتدفعها ، ولكنها لا تلج القرار لأنها ليست سببه المباشر. فالقرار النهائي ملكٌ للإرادة ، وهي وحدها التي تملك حق إصداره بعد أن تكون قد استمعت إلى إغراء الحواس والبواعث الخارجية من ناحية ، وإلى نداء الضمير من ناحية أخرى، وبعد أن تكون قد وازنت بين اتجاهين ورجحت إحدى الكفتين .

لكن هذه الحرية الشاملة، وهذا الاستقلال الكامل الذي تتمتع به الإرادة الإنسانية إزاء «الطبيعة» هل تملك حق المطالبة به إزاء «الخالق»؟ أليس من الممكن في آخر لحظة من لحظات المداولة والاختيار أن يتدخل «الله» جل وعلا ليرجح كفة الميزان في الإتجاه الذي يريده؟

في الحقيقة إن هذه المسألة عن «حتمية الارادة العلوية» نستعصى على وسائلنا في الفهم والتعليل، وهي لا تثار إلا لإرضاء نزعة الجدل العقلي الذي مهما كانت نتيجته، لا يؤثر على الأخلاق، ولا على العقيدة والإيمان .وبالنسبة للأخلاق - التي هي موضوع البحث - لايهمنا حُدوث الفعل بقدر ما تهمنا «الطريقة» التي يتصور بها

الإنسان سلوكه ، و«المبدأ» الذي يتصرف بمقتضاه . وهذا كلُّهُ يتلخص في كلمة واحدة هي «النية» .

وحينئذ فإن السؤال الهام الذي يجب أن يثار هو : ما هي نية الإنسان في الوقت الذي يقرر فيه اختيار سلوك معين؟ وهل يشعر أدنى شعور بأنه مدفوعٌ لاتخاذ قراره «بأمر إلهيّ» لم يسعه إلا الخضوع إليه؟ وهل كانت نيته أن يجعل من نفسه وسيلةً أو «أداة» لتنفيذ «الإرادة المقدسة»؟ فكيف يمكن حدوث ذلك إذا كان الإنسان لا يعرف الإرادة الإلهية سلفًا؟ إن الإنسان حين يعمل هذا ويترك ذاك يختار ما يراه الأنسب، وتنعقد نيته على تنفيذ القرار الذي تصدره إرادته الذاتية. وحتى لو كانت هناك قوةٌ تتدخل في سلوكه فإن قبوله لها يعني موافقة الإرادة عليها. وهكذا يصبح الإنسان مسئولاً بمجرد سلوكه، وذلك مثلما يصبح دائنا بتوقيعه لصك الدين .

٦ـ فكرة الجزاء وطابعها الإصلاحي:

ويترتب على الإلزام والمسئولية بالضرورة مبدأ «الجزاء» وهو موضوع الفصل الثالث، فالقانون الأخلاقي الذي يلزمنا، ويضعنا أمام مسئوليتنا يجب أن ينطوي، في الوقت نفسه، على نظام لتقدير مواقفنا، وإذا كان بعض الحكماء قد أنكروا وجود «جزاء أخلاقي» بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة فإن وجود هذا الجزاء بالفعل يدحض هذا الرأي، ويزودنا القرآن الكريم بنوعين من هذا الجزاء : فهناك أولاً الجزاء والطابع «الإصلاحي» ومعناه أن الإنسان الذي يسلك سلوكًا سيئًا يتحتم عليه إصلاح ما ترتب على هذا السلوك من فساد أو إهدار لحقوق الآخرين. وإهمال الواجب يقابله القانون بفرض واجب آخر، هو واجب «التعويض» ثم كيف لا نثير الشعور بتأنيب الضمير، وهو شعورٌ داخليٌّ يفتح أمامنا طريق الإصلاح وييسر لنا إصلاح أنفسنا وإصلاح أخطائنا؟ غير أن هذا الشعور لا يكفي وحده لإعادة النظام، بل لابد أن يدعمه موقفٌ جديدٌ من مواقف الإرادة، موقف يفترض بذل الجهد. هذا الموقف هو

بالتحديد موقف «التوبة» وهو في طبيعته المركبة يشمل الماضى والحاضر والمستقبل: إذ تقتضي التوبة إيقاف السلوك السيء، والعزم على عدم العودة إليه، والإستمساك من جديد بالواجب المهمل، وإصلاح الأخطاء المقترفة ، واتخاذ طريق جديد للسلوك. هذا التحول الأخلاقي في مجموعه تفرضه علينا الأخلاق كوسيلة إصلاحية .

وبالإضافة إلى ذلك، نجد في القرآن نوعًا آخر من الجزاء ذي الطابع : الإستحقاقي وهو رد فعل للقانون الأخلاقي يمارسه مباشرة وتلقائيًا ، ولايسع الإنسان إلا أن يتحمله رضيَّ أم لم يرضَ. فبحسب موقفنا «الخاضع» أو «المتمرد» بالنسبة لما يمليه علينا الواجب، نجد أن ملكاتنا العليا تتأثر سموًا أو إنحطاطًا. ولا يعني ذلك فحسب أن ممارسة الخير تُصفي القلب وتشحذ الإرادة وتُقوي العزيمة، بل إن صداها ينعكس أيضًا على الملكة الذهنية نفسها. وعلى العكس من ذلك نجد أن فوضى الإنقياد للنزوات تعتم الضمير، وتحول العقول عن تصور الحقيقة. ومُجمل القول، إن الجزاء الأخلاقي الإستحقاقي ينتهي إلى نوع من «التقدير للذات» ويؤدي إما إلى ارتفاع في القيمة الإنسانية وإما هبوط بها . وإذا كان الإنسان يتصرف بحرية فمعنى ذلك أن عمله انبعاثٌ لكيانه الكامل «جسمًا» و«روحًا» ولا يخفى ما بين هذين العنصرين من صلة وثيقة وتفاعل متبادل؛ ولذا كان من العدل أن يلقى الإنسان جزاءه أو عقابه في جسمه وروحه ونحن نرى أن قانون الطبيعة نفسه يُوزع الجزاء على الفضيلة أو الرذيلة توزيعًا مناسبًا: فالكفاح جزاؤه النصر، والإعتدال جزاؤه الصحة، والإدمان والرذيلة جزاؤهما النتائج الضارة للجسم والعقل غير أن هذه الجزاءات الطبيعية في الحياة الدنيا، ليست كاملة ولا شاملة. ولذا فإن العدالة الإلهية قد تكفلت بإكمال هذا النقص عن طريق الحساب في الآخرة .

٧ـ النية والبواعث:

ولننظر الآن في موقف القرآن الكريم من عمل الإنسان، ومقياس الحكم عليه، إن موقفه في هذا المجال واضحٌ ومحدد كل التحديد. فما يهتم به ليس هو التنفيذ المادي للأمر، وإنما «النية» الكامنة وراء الفعل. ويُعالج المؤلف موضوع «النية والبواعث» في الفصل الرابع. فإلى جانب إختيار الموضوع المباشر للعمل، هناك اختيار الهدف البعيد وفي حُسن اختيار هذا الهدف تكون النية الطيبة بمعناها الأخلاقي الصرف. ما هو المبدأ الأسمى الذي يضعه القرآن كشرط للحكم على قيمة أعمالنا؟ إنه «التنزه المطلق» بحيث يكون الهدف الوحيد للعمل هو ابتغاء وجه الله. إننا لا نجد فيه تعبيرًا يقترح لنشاطنا غايات نفعية حتى ولو كانت مشروعة . فالتصرفات الحكيمة إذا كانت غايتها الذات، والإخلاص للآخرين ليست إلا إضافات لا تقوم بذاتها، وإنما بالإستناد إلى المبدأ الأول وهو العمل من أجل إرضاء ا لله .

٨ ـ طبيعة الجهد الإنساني:

وكانت آخر مسألة عالجها المؤلف في الفصل الخامس من الكتاب هي تحليل، طبيعة، «الجهد» الإنساني الذي يأمر به القرآن الكريم، ودرجة هذا الجهد وقيمته في اكتساب الثواب وقد عالج المؤلف العلاقة بين الجهد والانبعاث التلقائي من ناحية، وبين الجهد وروح التيسير من ناحية أخرى، ووضح أن القرآن الكريم قد وازن بين كل من الطرفين المتعارضين، ودمج بينهما في تركيب يجمع بين الكمال والحكمة. وناقش فكرة المتشددين الذين يرفضون التلقائية في الفعل الأخلاقي، ولا يمنحون السلوك أية قيمة إلا إذا كان نتيجةً لجهد أو معاناة كبيرين. فإذا صح ما يدعى هؤلاء فإن النفس المتحررة من شهواتها لا تكتسب ثوابًا على ما تقوم به من أفعال خيرة، ولا تستحق هذا الثواب إلا إذا كانت فريسةً لانفعالات متسلطة عليها، وتكافح من أجل التغلب عليها. أو بمعنىً آخر كلما اقتربنا من المثال الأعلى في الانبعاث التلقائي لفعل

الخير، فَقَـدَ العمل جُزءًا من قيمتـه. وواضح ما في هذا الـرأي من منافاة لكل منطق، إذ بمقتضاه يكون الشـرير الذي يحاول جاهدًا التخلص من نزعاتـه الشريرة أعلى درجةً في السلم الأخلاقي من القديس الذي يمارس الفضيلة في يسر وبدون جهد يُذكر .

إن الوقوع في هذا التنـاقض قد نجم عن الاعتقاد الخـاطئ بأن الحيـاة الأخلاقية يجب أن تكون حربًا لا هوادة فيها ضد نزعات كامنـة في الإنسان ، هذا الإنسان الذي يرى بعضهم أنه شـريرٌ بطبعه، وأنه لا يستطيع أن يتحرر من طبيعته الشـريرة، وأن القداسة فكرةٌ وهميةٌ ليس لها مكانٌ على الأرض.

إن موقف القـرآن الكريم من هـذه المســألة يختلف تمامًـا عـن هذا الموقف المتشــدد المتشائم وينزع إلى نظرة أكثر رحابة وأكثر تفاؤلاً . لقد كان هناك دائمًا عددٌ من عباد الله الذين اصطفـاهم لفعـل الخـير، وسـوف يكـون منهم عددٌ، دومًـا على مـر الزمان. هؤلاء العبـاد من الصفوة قد جُبلُوا ، بما أودعه الله فيهم من نزعات فطرية، على معرفة الحقيقة وعلـى ممارسـة الفضيلة. وهـم يُسـارعون دائما إلى عمل الخـير بإخلاص، وعن انبعاث تلقائي ولا يصح القول إنهم لا يبذلون أي جهـد يستحقون عليه المثوبة، بل إن الجهـد الذي يبذلونه بـدلاً من أن يتجه نحو مغالبـة «الشـر» فإنه يتجـه نحو «البناء» أي نحو إضافة لبنات جديدة إلى صرح الفضيلة .

ونحن لا ننكر أن هذه الصفوة الممتـازة قلة؛ غير أن هناك قدرًا مـن الشهامة في كل نفـس وإن اختلفت في شـكلها. والإنســان لا يخلق تلك النزعـات الطيبـة في نفسـه بل يتلقاها استعدادًا مبدئيًا من يد الخالق، ولا يفتأ ينميها بالكفاح أو لمقاومة قوة شريرة أو لكسـر جُمود المـادة ورُكود الحيـاة العاديـة. وهذا النوع الأخـير من الكفـاح هو عمل الشــخصيات الأخلاقيـة العظيمــة. فجهدهم ينصب في جوهـره على متابعــة النشـاط الخلاق، ومحاربـة التوقف عند حد معين، والتصـاعد بالعمل الأخلاقي، وهكذا نرى أنه من الممكن التوفيـق بين «الجهـد» والإنبعاث «التلقــائي» ومن الممكن أن يســهم كلٌّ منهما في إحراز الفضيلة واستحقاق الثواب.

٩ـ العلاقة بين الجهد والتيسير وموقف القرآن:

أما العلاقة التركيبية بين الجهد والتيسير فنجدها أكثر وضوحًا في القرآن: فلا يتنافى التيسير العملي في ممارسة الشعائر مع مفهوم الجهد، بل إنه يُضفي عليه طابعًا إنسانيًا. ويهدف هذا الجهد إلى إبعاد روح التعسف الذي لا يبرره عقلٌ ولا يدعو إليه واجب، كما أنه يستبعد التزمت الضيق في التدين، والذي يستنفد الجهد في الحاضر، دون أن يترك ذخيرة تمكن من الإستمرار في المستقبل. هذا الجهد الذي يخضع لحكم العقل ويتسم بالنبل والإعتدال هو نفسه «الوسط العادل» الذي تكلم عنه الحُكماء والفلاسفة. ويزيد عليه القرآن تنظيمًا في تدرج القيم بحسب الجهد الذي يبذل، فهناك الحد الأدنى الذي يفرض على الإنسان العادي، وما زاد على ذلك فهو «كمال» يحث عليه القرآن وتزداد عليه درجات الفضل والمثوبة .

١٠ـ الأخلاق العملية:

أما فيما يتعلق بالقسم الثاني من الكتاب، وهو الخاص بالأخلاق العملية، فقد اختار المؤلف طريقة للعرض تختلف عن طريقة «الغزالي» ومن حذا حذوه من المصنفين لآيات القرآن الكريم . فبدلاً من أن يجمع جميع الآيات التى لها صلةٌ بالسلوك الإنساني، إكتفى بذكر عدد من الآيات التي تشرح بوضوح كل قاعدة من قواعد السُلوك ، وتحاشى التكرار قدر الامكان.. وبدلاً من التقيد بتسلسل السور، أو التسلسل الأبجدي للمبادئ الأخلاقية : فينطوي الفصل الأول الخاص «بالأخلاق الفردية» على الآيات المتصلة بالتعاليم الخلقية للفرد، والجهد الأخلاقي، وصفاء الروح، والاستقامة والعفة، والوداعة، والسيطرة على الشهوات، وكبت الغضب، والإخلاص، والتواضع والتحفظ

في إصدار الأحكام، والإقتناع عند الشك، والمثابرة، والتحمل، والإقتداء بالمثل الطيب إلخ ...

ومن حيث التحريمات نجد الآيات التى تمنع الإنتحار وبتر الأعضاء أو تشويه الجسم وتحرم الكذب، والنفاق، والبخل، والإسراف، والتفاخر والحرص على متاع الدنيا، والحسد إلخ.. ويهتم الفصل الثاني بتجميع الآيات التي تتصل بالأخلاق العائلية، ويصنفها تحت أقسام : الواجبات نحو الآباء والأبناء ، والواجبات نحو الزوج، الواجبات نحو الأقارب، والميراث ويندرج تحت كل قسم من هذه الأقسام أقسامٌ فرعية وفي الفصل الثالث نجد الآيات المتصلة بالأخلاق الاجتماعية ويندرج تحتها: تحريم القتل، والسرقة، والإختلاس، والقرض بفائدة، وتبديد مال اليتامى، والخيانة .. الخ .. والأمر برد الوديعة ، وكتابة الدين، ومراعاة العُهود، وشهادة الصدق، واقرار الوئام بين الناس، والتعاطف مع الآخرين، وتحرير الرق، والإحسان إلى الضعفاء.. الخ.. كما نجد الآيات التي تنظم قواعد التأدب: كالإستئذان قبل الدخول، وخفض الصوت، والمبادرة بالتحية، والرد على التحية بأحسن منها، وحسن الهندام، وحسن اختيار الحديث. ويهتم الفصل الرابع بالأخلاق الخاصة بالدولة، وفيه نجد الآيات التي تُوضح العلاقة بين الحاكم والمحكوم، والآيات التي تنظم العلاقات الخارجية إلخ.

وفي الفصل الخامس الأخلاق الدينية وتنطوي على الآيات التي تنظم واجبات الإنسان نحو الله في ضوء هذا العرض السريع لفصول الكتاب، يمكن القول إن المسلم يجد في القرآن الكريم كل ما يُشبع حاجته في مجال الأخلاق سواءًا من الناحية النظرية أو العملية بل يمكن القول إن الإنسانية كلها، على مر العصور والأجيال، وعلى ما قد ينتابها من تغيرات عميقة في الوجود، سوف تجد دائمًا في القرآن الكريم قاعدةً تنظم نشاطها الأخلاقي، ووسيلةً تحفز جهودها ومثالاً أعلى تهتدي به .



الفصل الرابع

أوراق من تاريخ الرسالة

١- في عبقرية الدكتور دراز اللغوية .
٢- قصة ترجمة الرسالة .
٣- كلمة إنصاف لابد منها.
٤- جهود المراجع .
٥- ترجمة مختصر الرسالة .
٦- بواعث ترجمة المختصر .
٧- منهج المترجم في المختصر .
٨- نتائجٌ وحقائق أبرزتها الرسالة .
٩- طبعات الرسالة .
١٠ - بيان توزيع الرسالة في المكتبات الأورُبية.
١١- بيان توزيع الرسالة على الصحف الغربية.



في عبقرية الشيخ اللغوية(*)

للأستاذ/ محمد عبد العظيم علي

كنت قد أعددت ورقةً للحديث عن العالم الأزهرى الكبير د. محمد عبد الله دراز للمشاركة في الندوة التي عقدتها جريدة «آفاق عربية» الغراء عنه، حددت فيها ملامح لأحد جوانب عبقرية هذا العالم الجليل وهو العبقرية اللغوية التي أستطيع القول إنني لامستها عن قرب في شخصية الدكتور دراز من خلال مصاحبة مؤلفاته نحو نصف قرن بدأتها بقراءة رسالته الخالدة **«دستور الأخلاق في القرآن»** في نسختها بالفرنسية ، ووقتها كنت مازلت طالبًا واستمرت صحبتي له إلى أن قمت بترجمة بعض مؤلفاته ومن ضمنها هذه الرسالة التى أعددت لها مُختصرًا بالفرنسية وآخر مُترجمًا بالعربية.. ولما حالت الظروف دون مُشاركتي في الندوة فقد أثرت أن أرسل ملاحظاتي للنشر على أكمل الفائدة.

سوف أتعرض أن شاء الله للجانب اللغوي في نشاط الأستاذ الدكتور دراز في كلماتٍ بسيطة تتركز أكثر ما يكون على موهبته وقدراته اللغوية في اللغة الفرنسية كما تجلت في رسالة الدكتوراة .

فلا غرابة أن نلاحظ ما بلغه مستوى الدكتور دراز في اللغة العربية ومصطلحاتها الإسلامية والفلسفية، وقد سمت إلى هذا المستوى الرفيع من القوة والرصانة والجمال والدقة العلمية فهو رحمه الله من علماء الأزهر الشريف الذين نهلوا من علومه

(١) لقيمة هذا البحث في التعريف بلغة الشيخ وقدرته وتمكنه في الفرنسية نقلناه بنَصِه وقصه، وكان الأستاذ محمد عبد العظيم علي الباحث والمترجم قد قدم هذا البحث للمشاركة في الندوة التى عقدتها جريدة «آفاق عربية» عن الدكتور محمد عبد الله دراز .

راجع العدد ٤٣٤ بتاريخ ١٠ شعبان ١٤٢٠هـ ١٨ نوفمبر ١٩٩٩م .

الإسلامية المتعددة الجوانب ، وأحاطوا بمصطلحاتها إحاطة كاملة، فضلاً عن السنوات التى قضاها في التدريس بالأزهر الشريف قبل وبعد سفره إلى فرنسا لإعداد رسالة الدكتوراه التى كانت في موضوع : (**فلسفة الأخلاق في القرآن الكريم**) وعنوان الرسالة الرئيسية مترجمًا هو «**دستور الأخلاق في القرآن**» وعنوان الرسالة الفرعية «**مدخلٌ إلى القرآن الكريم**» . ولكن الذي يُثير الدهشة حقًا هو ما بلغه الدكتور دراز من مستوى رفيع في اللغة الفرنسية التي لم يتعلمها في صغره في مدرسة أجنبية وإنما درسها في سن الرجولة بجهوده الشخصية . فضلاً عن لغات أخرى، حيث لاحظنا في مراجع الرسالة الفرعية مرجعين باللغة الانجليزية ومرجعًا بالألمانية لقد بلغ في لغته الفرنسية وأسلوبه مستوى أديب فرنسي من الطراز الأول وتميزت لغته الفرنسية برشاقة الجمل، وجمال الأسلوب، ووضوح الأفكار وبخاصة الإسلامية، والدقة في اختيار العبارات والمصطلحات ، مع ثراءٍ بلا حدود في الكلمات والمترادفات، والعبارات والأوصاف والتراكيب اللغوية مع القدرة على تحليل ودراسة الفكر المعارض، ومجادلته والرد عليه، وعرض الحجة تلو الحجة، وضرب الأمثلة في بساطة وقوة.

ولقد اقتضى عرض نظام الأخلاق في القرآن الكريم والسنة الشريفة أن ترجم الدكتور دراز عددًا هائلاً من الآيات القرآنية ترجمة «فريدة» ومتميزة وجميلة تحمل خصائص العالِم الإسلامي الفاهم لمعاني القرآن، فهي أقرب ما تكون إلى التفسير منها إلى الترجمة ، فضلاً عن عدد كبير من الأحاديث النبوية الشريفة.

بالإضافة إلى نصوص لعلماء الأخلاق الإسلاميين، وعرضها في أسلوب فرنسي عصري يلغي مئات السنين التى فصلت بين الدكتور دراز وعصر هؤلاء العلماء (نقلها الدكتور عبد الصبور شاهين في ترجمة نصوصها العربية الأصلية من مراجعها العربية، أما في المختصر فقد فضلت ترجمة الدكتور دراز إلى العربية لإفادة القارئ العربي من

الدكتور دراز في خدمة هذه النُصوص، وتوضيحها وإضافة سمات الحداثة عليها.

وننقل بعض الأمثلة لتوضيح ما سبق.

* لقد وصف بالفرنسية لغة القرآن بما ترجمته «لغة القرآن مادة صوتية» تبعد عن طراوة لغة أهل الحَضَر ، وخشونة لغة أهل البادية وتجمع - في تناسق حكيم - بين رقة الأولى وجزالة الثانية. وتحقق السحر المنشود، بفضل التوفيق الموسيقي البديع بينهما. إنها ترتيبٌ في مقاطع الكلمات في نظام أكثر تماسكًا من النثر، وأقل نظمًا من الشعر. يتنوع في خلال الآية الواحدة ليجذب نشاط السامع، ويتجانس في آخر الآيات سجعًا، لكي لا يختل الجرس العام للوقفات في كل سورة.

أما كلماته فمنتقاةٌ من بين الكلمات المشهورة، دون أن تهبط إلى مستوى الدارج ومختارةٌ من بين الكلمات السامية، التي لا توصف بالغريب إلا نادرًا، ويمتاز بالإيجاز العجيب في الكلام، والتركيز الشديد في المعنى والوضوح الأخاذ مع العمق والمرونة والإيحاء والاشعاع في كل جانب مثل أوجه قطعة الألماس البراقة .. إلخ»

* ولقد اشتمل قسم الأخلاق العملية في دستور الأخلاق على مقدمة وخمسة فصول في ٩٠ صفحة كلها آياتٌ قرآنية مترجمةٌ بالفرنسية، ومرتبةٌ حسب مجالات الأخلاق والأخلاق الأُسرية ، والأخلاق الاجتماعية، والأخلاق الخاصة بالدولة والعلاقة بين الرئيس والشعب، وواجبات كل منهما .. والعلاقات الخارجية في الأحوال العادية وفي حالة العدوان) وأخيرًا الأخلاق الدينية .

وكل آية من هذه الآيات فوقها عنوانٌ بالفرنسية يُلخص مضمون الآية والمجال الأخلاقي . وبلغ عدد هذه العناوين ٢٢٧ عنوانًا عن ٦٨٠ آية قرآنية .

* أما القسم النظري من كتاب دستور الأخلاق، فقد عرض فيه الدكتور دراز الأسس النظرية والمبادئ الكلية، ونظام الأخلاق في القرآن طبقًا لمنهجه وتبويب فلاسفة الغرب لموضوعات علم الأخلاق. وفي السياق ناقش كانط وبرجسون، وشوبنهور، وسبينوزا، وهوم وديكارت وليفي بروفيل.. في نظرياتهم مناقشة الند للند،

وأثبت في نقـاطٍ كثيرة قُصور نظرياتهم أمام كمـال نظام القرآن الأخلاقي الذي عرضه عرضًا كاملاً ومفصلاً موضحًا عظمة القرآن ونظامه المتميز .

ولما وصـل الدكتور دراز رحمـه الله إلى فصـل الجزاء، نهج أسـلوبًا متميزًا لتوضيح نظام التربية القرآنية ثم الجزاء الإلهي في الحياة العاجلة، والجزاء الإلهي في الآخرة. وجعل لكـل فقرة عنـاوين عديدة بالفرنسـية تعبر عـن مضمون الآيـات القرآنيـة، وأوضح في الهـامش بيانًا إحصائيًـا تحت كل عنوان يحدد عـدد الآيات المكيـة والمدنيـة التي تعبر عن معنى كل عنوان. وأحصى كل الآيات بأرقامهـا وسورها التي تخص كل عنوان، وعلى مستوى القرآن الكريم كلـه بلغ مجموع الآيـات الكليّ التي أحصاها ١٣٣٣ آيـة مكية و١٠٦٠ آية مدنية تحت عناوين بلغ عددها ٣٥٥ عنوانًا .

* ولكي نقـدر المجهود الذي بذلـه الدكتـور دراز في إعداد هذه الإحصائيـات يدويًا وفي زمن لم يكن الحاسـوب الإلكتروني قـد اخترع بعـد .. نقدم نموذجًـا واحدًا لبيان ذلك. إذ جـاء بهـامش صفحـة ٣٨٢ مـا ترجمته «أحصينـا ذكر اسـم الله في القرآن فكـانت ١٠٦٢ مرة أي ٢٠ مرة في الصفحـة الواحدة. ووجدنـا ٣٢ صفحة فقط يقل ذكر الله فيهـا عن ١٠ مـرات (علمـا بـأن الصفحـة ١٥ سـطرًا وعـدد الصفحات في المصحف ٥٠٠ صفحة) .

فانظر إلى هذه السطور القليلة ومقدار ما تخفيه من جُهدٍ وصبرٍ ووقت ودقة. وعلينا أن نتسـاءل عن الظروف التي تم فيهـا إعداد رسـالة الدكتوراه هـذه فقد كانت الحرب العالمية الثانية على أشدها ، وكانت غارات الألمان على باريس من الكثافة بحيث كانت تجـبر النـاس علـى اللجـوء إلى المخـابئ . ولقـد أراد الله أن يتم الدكتـور دراز رسـالة الدكتوراه ونجاه وأسرته الكريمة من كل سوء.. والله مُتم نوره ولو كره الكافرون .

فرحم الله فقيدنـا الدكتور محمد عبدالله دراز وأجزل مثوبتـه، وأعان المسلمين على الانتفاع بجهوده، وعلى نشر العقيدة الصحيحـة، والإسلام الصحيح، أمام تحديات هذا العصر .. والله المستعان .

قصة ترجمة الرسالة

ظل جُمهور المثقفين من العرب والمسلمين يسمعون عن «دستور الأخلاق في القرآن» هذا العمل القيم. دون أن يستطيعوا قراءته والاستفادة منه. حتى قيض الله له أستاذًا شابًا من خيرة شباب العرب والمسلمين هو الدكتور عبد الصبور شاهين ، الذي ندب نفسه طيلة أعوام ثلاثة لترجمة النص الفرنسي إلى العربية، وقد جمع صفات وميزات قلّما تتوافر لمن يتصدى لمثل هذا العمل الضخم، فهو إلى جانب تكوينه وثقافته الدينية العميقة أستاذٌ للغة العربية كما أنه يتقن اللغة الفرنسية التي درسها دراسة جادة، وترجم منها إلى العربية عدة كتب لعدد من العلماء والفلاسفة[1]، ويحكي د. عبد الصبور قصة ترجمته لهذه الرسالة ومحاولات من سبقه وعن علاقته وتلمذته على الدكتور دراز، يقول الدكتور عبد الصبور شاهين ما نصه:

«كنت أجلس بين يدي الأستاذ المؤلف في قاعة الدرس بكلية دار العلوم شتاء عام ١٩٥٥م طالبًا بالليسانس أسمع منه تفسيره لكتاب الله عز وجل، وأتعلم منهاجه، فإذا حضرتني خاطرة تتصل بما كنت آنذاك حريصًا على تحصيله وأيضًا على التظاهر به أمامه، وهو ثقافتي الفرنسية علوت بصوتي أسأل الأستاذ وهو يبتسم لي في سمتٍ ووقور، ثم يجيب ويناقش مدركًا ما كنت أرمي إليه من تعارف أتمنى أن تتوثق عُراه، وليس كالثقافة المشتركة أعرف قدر أستاذي وأدرك خطر مكانته رغم تواضعه الجم، وسماحته السخية، ورغم أننا افترقنا منذ ذلك التاريخ فارقته شخصًا و لم أفارقه فكرًا ولا رُوحًا حيث عشت محنيةِ عام، ثم لم نلتق حتى كانت وفاته في السادس من يناير ١٩٥٨م .

لم أكن أتصور أن هذه العلاقة سوف تستبد بي فيما بعد لأعكف ثلاث سنوات أو

(١) د. السيد محمد بدوي ـ مقدمة للرسالة .

(٢) د. عبد الصبور شاهين ـ مقدمة للرسالة .

تزيد، أستخرج خلالها أثمن ما ترك من تراث، وأخلد ما أبدع من فكر، رسالته عن «دستور الأخلاق في القرآن» وهي التي قدمت نسختها الفرنسية إلى المطبعة عام ١٩٤٨م ثم لم تظهر ترجمتها إلى العربية إلا بعد رُبع قرن من ذلك التاريخ، وبعد أن لحق المؤلف ـ رضوان الله عليه ـ بالرفيق الأعلى بأكثر من خمسة عشر عامًا . كيف ظلت هذه الرسالة دون تعريب حتى الآن على جلالها، والدنيا كلها تعرف بوجودها والمعربون بحمد الله كثرةٌ كثيرة، وفيهم من قرأها ودرسها ؟

سؤالٌ لا جواب له إلا بأنها إرادة الله، التي ادخرت هذا العمل لتتصل به علاقة شاء الله لها أن تتنامى بالغيب، على تنائي طرفيها، أو أطرافها جميعًا[١] .

وكان الشيخ الباقوري معجبًا غاية الإعجاب بالرسالة لأنه سمع أنها رسالةٌ عظيمةٌ جدًا ، وأن هذه الرسالة كان لها صدىً قويًا في الغرب حيث كانت سببًا في إسلام الكثيرين، حيث كتبها مؤلفها بإخلاصٍ وصدق شديدين، وقد شكل الشيخ الباقوري لجنةً لترجمتها عندما كان وزيرًا للأوقاف ولكن هذه اللجنة فشلت في مهمتها، ثم شكل لجنة أخرى وهو مدير لجامعة الأزهر و لم يكن حظ هذه اللجنة أوفر من سابقتها حيث لاقت نفس مصيرها وهو الفشل »[٢] .

ثم جاءت مُحاولة الدكتور عبد الصبور شاهين ، فكانت أوفر حظًا من سابقتها وكُتِبَ لها النجاح، وكُتب للأمة العربية أن تطالع فكرًا إسلاميًا عظيمًا، ولعل السبب في نجاح هذه المحاولة تلك العلاقة والثقافة المشتركة بين كاتبها ومترجمها.

وتقديرًا من الدكتور عبد الصبور شاهين لقيمة هذا الكتاب، وما يعود من نفعٍ على الأمة العربية والإسلامية فقد أشار إلى مكانة الكتاب العظيمة في نفسه ، في محاضرة[٣]

---

(١) د. عبد الصبور شاهين ـ مقدمته للترجمة .

(٢) بتصرف من محاضرة للدكتور عبد الصبور شاهين بمسجد الشهداء بمدينة السويس .

(٣) هذه المحاضرة قدمها لي صديقنا الدكتور يسرى خضر مسجلة على شريط كاسيت .

له فقال: أنا ترجمت أعظم كتاب كُتب في الإسلام، أعظم كتاب في الأخلاق «دستور الأخلاق في القرآن» أسأل الله أن يكون في يدي منه نسخة يوم القيامة أقابله بها.. كتابٌ عظيم .. الله أكبر .. الذي كتبه الشيخ محمد عبد الله دراز ـ رحمة الله عليه ـ أحسن علماء الأزهر الذين خرجهم بإطلاق ـ أعلى علمًا من الذين بعثوا إلى أورُبا ـ أعظمهم جميعًا دراز .

*** وكلمة إنصاف لابد منها:**

فالحق أن الدكتور عبد الصبور شاهين الذي قام بمهمة الترجمة، لم يقم بعمله كما يقوم بأعمالهم سائر المترجمين وإنما بذل جُهدًا واضح الأثر في الدراسة، ولقد عايش النص بعقله ووجدانه و اقتنع بالعمل العظيم كذلك جاء جهده مشكورًا، وجديرًا بكل تقدير[١] .

يحدثنا الدكتور السيد محمد بدوي عن جهود المترجم فيقول:

« لم يأل المترجم جهدًا في أن يضع في خدمة النص كل ما يستطيع من أساليب التوثيق والإيضاح التي تخدم قارئ العربية وتعمق ثقافته الدينية، من ذلك أنه لم يكتف كما فعل المؤلف بالإشارة إلى الآيات القرآنية في الهامش بذكر رقم الآية والسورة، بل أخذ على عاتقه كتابة الآيات الكريمة كاملة وإدماجها في النص نفسه، وبذلك كفى القارئ مؤونة البحث في المصحف الشريف عن تلك الآيات التى لا غنى عنها لتدعيم الفكرة التي يشرحها المؤلف. ومن ذلك أيضًا ما قام به من الرجوع إلى كتب الفقه والحديث والتفسير وعلم الكلام لتوثيق بعض النصوص التي لخصها المؤلف بالفرنسية، وحرص المترجم على وضعها في نصها الأصليّ الذي ورد في كتب التراث الإسلامي، وفي بعض المواضع التي كان المؤلف يكتفي فيها بالإشارة إلى واقعةٍ ما، كان المترجم

---

(١) محمد عبد الله السمان ـ من المكتبة الإسلامية ـ مجلة الوعي الإسلامي العدد ١١٨.

يُجهد نفسه للبحث عن ظروف هذه الواقعة ، ويثبتها كاملة[1] .

وأشهد أنه قد بذل في الترجمة نفسها جهدًا كبيرًا، وذلك لصعوبة النص في بعض المواضع، ودقة الأفكار الفلسفية التي تعرض لها. ولابد أنه قد وقف ـ مثلما وقفت عند مراجعة الترجمة، ساعات طويلة أمام عبارة من العبارات.. حتى يطمئن إلى دقة الترجمة وإلى التعبير عن المعنى الذي قصد إليه المؤلف[2] .

* جهود المراجع:

قام بمراجعة الترجمة الأستاذ الكبير الدكتور السيد محمد بدوي صهر الدكتور دراز، وقد قدم للترجمة بمقدمة موجزة مركزة وقد عاش مع الرسالة مرتين: مرةً أثناء تأليفها حيث كان يدرُس في باريس، ومرة أثناء ترجمتها، والحق، أن المقدمة على إيجازها تُلقي أضواءًا على هذه الرسالة الجامعية التي هي بمثابة خلاصة سريعة للأفكار الرئيسية فيها، وتيسر للقارئ استيعاب هذه الدراسة القيمة[3]، لهذا آثرنا وضعها كاملة ضمن هذا البحث بناءًا على رغبة كاتبها. ولإيفائها بالمقصود من عرض أفكار الرسالة. وقد أسهم الأستاذ الكبير بجهدٍ مشكور بقدر ما يستطيع في الترجمة والمراجعة معتمدًا على خبرته بما عرفه من أسلوب المؤلف وطريقة تفكيره، ودقته في اختيار اللفظ الذي يعبر عن الفكرة، وأدى هذا التعاون الوثيق بين الدكتور بدوي والدكتور شاهين إلى خُروج الترجمة على الصورة التي يرضاها المؤلف في برزخه إلى القارئ عرض الدكتور بدوي للرسالة ليدرك قيمة هذا العمل الضخم. الذي لم يستفد منه المسلمون بعد، في الجانب التربوي بالذات، والله نسأل أن يوفق القائمين على العملية التعليمية في ديار الإسلام ومصر خاصةً للإستفادة من هذا السِفْر المبارك تربويًّا، وتكوين المجتمع الصالح، وما ذلك على الله بعزيز .

---

(١) د. السيد بدوي ـ مقدمته للرسالة .

(٢) د. السيد محمد بدوي ـ المقدمة .

(٣) محمد عبد الله السمان ـ من المكتبة الإسلامية ـ الوعي الإسلامي العدد ١١٧ .

ترجمة مختصر دُستور الأخلاق في القرآن[1]

قام الأستاذ الكبير محمد عبد العظيم علي بترجمة مختصر للرسالة يسهل تناوله واستيعابه للقارئ العادي غير المتخصص وأسماه «مختصر دستور الأخلاق في القرآن» وطبعته في مصر دار الدعوة بالاسكندرية بتقريظ الأستاذ الدكتور مصطفى محمد حلمي الأستاذ بكلية دار العلوم بالقاهرة. وقد رأيت أنه من الأهمية بمكان أن نذكر هذا الجهد المشكور الذي قام به صاحب ترجمة المختصر، حيث أن الأستاذ محمد عبد العظيم عليّ له جهدٌ سابقٌ في ترجمة تراث الشيخ لقراء العربية، فقد ترجم الرسالة الفرعية «مدخل إلى القرآن الكريم »[2] وبذل فيه جهدًا رائعًا، ووضع فيه ثقافته الدينية وإيمانه العميق إلى جانب تمكنه من اللغة الفرنسية .

وقد جعل كل هذه العناصر في خدمة النص الفرنسي فجاءت ترجمته للمدخل موفقةً غاية التوفيق. أما عن جهده المشكور في خدمة «دستور الأخلاق في القرآن » من خلال المختصر الذي أعده للقراء غير المتخصصين إلى جانب المتخصصين فإننا نفسح له المجال ليحدثنا عن قصة ترجمة المختصر وبواعث ترجمته ومنهجه في إعداد هذا المختصر الرائع. فقال في مقدمة المختصر:

«حصلت في الستينات على النص الفرنسي لكتابيّ «الأخلاق في القرآن» و«مدخل إلى القرآن الكريم » من لجنة الفتوى بالأزهر الشريف بمناسبة مشكلة عرضتها عليها، ومن وقتها لم تفارقني هذه الرسالة الرائعة ؛ لأنها - بعد كتاب الله - من أحب الكتب إلى قلبي ، وأقربها إلى عقلي، وأكثرها صحبة في حياتي . ولقد كان حصولي على هذه الرسالة من أكبر نعم الله عليّ إذ فتحت أمامي عالمًا رحبًا من الفكر

---

(١) انظر «مختصر دستور الأخلاق في القرآن» إعداد وترجمة محمد عبد العظيم. دار الدعوة الطبعة الثانية ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م .

(٢) نشرته دار القلم بالكويت .

والثقافة الإسلامية باللغة الفرنسية، وهو المجال الذي كنت بدأت أطرقه لأعمل في الترجمة في الحقل الإسلامي.. فوجدت فيها ترجمات رائعة لآيات كثيرة وأحاديث نبوية عديدة كمٌ هائلٌ من مصطلحات إسلامية وفلسفية وقانونية ودينية .. إلخ، فأفادتني في مجال الترجمة بما لم أستفد به من أية دراسة ، فضلاً عن أسلوب المؤلف بالفرنسية الذي يضارع أسلوب أي أديب فرنسي .

ثم شاءت الأقدار بعد ذلك أن التقيت بالأخ المرحوم / أسعد سيد أحمد ـ أحد رُواد النشر بالقاهرة ـ وكان مما تحادثنا فيه هذان الكتابان، وكان من محاسن الصدف أن وجدته يفكر في إعادة نشر مؤلفات عالمنا الجليل الدكتور محمد عبد الله دراز ـ المطبوعة باللغة العربية ونشر ترجمة لرسالة الدكتوراه .

وفي أول فرصة اتصل بي كمندوب لدار القلم بالكويت، لأتولى ترجمة الرسالة الرئيسية «**دستور الأخلاق في القرآن**»[1] فانطلقت في الترجمة، وبعد شهور طلب مني إنجاز ترجمة «**مدخل إلى القرآن الكريم**»[2] أولاً، فانتهيت منها بتوفيق الله في شهر يونيو سنة ١٩٧٠ ونشرت في نفس العام .وعدت إلى ترجمة كتاب «دستور الأخلاق في القرآن» إلى أن ظهرت ترجمة الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين كاملةً فطلب مني التوقف عن الترجمة لحين التوصل إلى قرار. وبعد ذلك تقرر نشر ترجمة الدكتور عبد الصبور شاهين فنشرت بعنوان «دستور الأخلاق في القرآن» عام ١٩٧٣ وانشغلت بعد ذلك بأعمال كثيرة في الترجمة، إلى أن بلغت سن المعاش وبدأت أتفرغ لأحب الأعمال إلىنفسي . ولاحظت أن الإتجاه الجديد في عالم النشر هو تلخيص الكتب الهامة وإعادة نشرها بأسلوب مبسط لإتاحة الفرصة لأكبر قطاع من القراء للإطلاع عليها والإفادة ببحوثها .

(١) أنظر: «مختصر دستور الأخلاق في القرآن».
إعداد وترجمة محمد عبد العظيم علي - دار الدعوة - الإسكندرية - الطبعة الثانية ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م .
(٢) نشرته دار القلم بالكويت .

بواعث ترجمة المختصر:

وبعد تجربــة لي ناجحـة في التلخيص، خطـرت لي فكـرة تلخيـص كتـاب «دسـتور الأخلاق في القرآن» و«مدخل إلى القرآن الكريم» للأسباب الآتية :

١ـ أن هذه الرسـالة ثمرة جهد علامـة وبحاثـة من طلائع ورواد الفكـر الإسـلامي في القـرن العشرين . ظـل هذا العلم محجوبًا عـن قراء العربيـة منذ عام ١٩٤٨ حتى ظهور ترجمتي لـ «مدخل القرآن الكريم » عام ١٩٧١ ، وترجمة الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين «دستور الأخلاق في القرآن» عام ١٩٧٣ .

٢ـ إن كتـاب الأخلاق في القرآن بمادته العلمية وتحليلـه، ومناقشاته الأكاديمية وسعة حقل بحثه هو من الصعوبة بمكان، ثم جاء تعريبه .

فلـم يذلل الكثير مـن الصعوبات، ممـا قَصَرَ قراءة الكتـاب المعرب والإفادة منـه على المتخصصين والباحثين بـل على القلة القليلـة منهم. وظـل غيرهم من قـراء العربية حتى يومنا هذا محرومين منه ومن مادته العلمية .

٣ـ إن علاقتي بالنص الفرنسي للكتاب «دسـتور الأخلاق في القرآن» علاقـة قديمةً ترجع لأكثر مـن ٣٥ عامًا . إذ سـبق أن ترجمت أجزاءً منـه وتكررت قراءتي له مرات ومـرات إعجابًا بـه وتعمقًا في دراسته واستفادة مـن أسلوبه الفرنسـي الرفيع فضلاً عن ترجمـة الرسـالة الفرعيـة «مدخل إلى القرآن الكريـم» كل ذلك يسـر لي القيام بمهمـة التلخيـص من أجل أن يعـم النفع بنتـائج هذا البحث العظيم الـذي لا يزال جديدًا رغم السنين التي مرت عليه .

منهج المترجم في المختصر:

وكان منهجي في هذا الجهد الكبير - المستقل تمامًا في معظمه - والذي أضفته إلى أصل هذا الكتاب الهام كالآتي :

* لما كانت غاية المؤلف عرض الوجه الحقيقي للإسلام ونظام فلسفة الأخلاق في القرآن والسنة. فقد حافظت - في المختصر - على هذا الجانب بصورته كاملة وفي أغلب تفاصيله حتى يستفيد منه قارئ العربية مع تلخيص ما رأيت تلخيصه.

* تركزت عملية الاختصار أكثر ما يكون في المواضع التي تتعلق بالفلسفة وتاريخها وآراء الفلاسفة والنظريات الفلسفية ، وتاريخ الفكر الفلسفي وكذلك تاريخ وقضايا وخلافات المدارس والمذاهب الإسلامية إلى الحد الذي لا غِنىً عنه.

* خففت من الاستدلالات المطولة إلى القدر الضروري مع التركيز على النتائج. وكذلك بالنسبة للاستطرادات في الموضوعات الجانبية والثانوية والفرعية مع تبسيط عرض الأمثلة واختصارها .

* وفي كل عملي في المختصر كان الأصل الفرنسي والكتاب المعرب ومسودات ترجمتي السابقة لأجزاء من الكتاب كل هذا كان أمامي أثناء التلخيص. أقرأ ثلاثتها وأخرج من القراءة بأحسن ما أجد ترجمة وصياغةً واختصارًا، فقد كنت أراجع النص الفرنسي على الكتاب المُعرب وأعيد صياغة الترجمة أو أعيد ترجمة المقطع من جديد بحسب ماكنت أرى لازمًا، ثم أقوم باختصار الموضوع طبقًا لمنهج الإختصار المذكور. مع الإلتزام التام بمضمون الأصل الفرنسي .

* وفي إعادة الصياغة كنت أتوخى اختيار أيسر العبارات وأسهل الجمل وأبسط التراكيب، وأقصر طرق الربط بين الجمل والأفكار متلافيًا كثرة الجمل الإعتراضية، والألفاظ الثقيلة والصياغات القديمة والبعد عن حرفية الترجمة لتكون الجمل سهلة

وسلسة ومتدفقة، والمعنى واضحًا لا لبس فيه ، فلا يحتاج القارئ إلى إعادة قراءة الجملة ليفهم المقصود .

* وهناك مقتطفات من كتب المؤلفين والأخلاقيين الإسلاميين كان المؤلف قد لخصها في النص الفرنسي، وكان المعرب قد أثبت نصها العربي الأصلي الكامل من ذات المراجع، ونظرًا لقدم أُسلوب هذه النصوص فقد اكتنفها الغموض الشديد. فآثرت ترجمة الملخص - الذي أورده المؤلف بالأصل الفرنسي - بأسلوب عربي عصري، يتمشى مع أسلوب (المختصر) حرصًا على وضوح المعنى، تاركًا لمن أراد الاصلاع على النص الأصلي فرصة الرجوع إلى الكتاب المعرب أو إلى المراجع الإسلامية ذاتها .

* لم أثبت في المختصر سند الأحاديث النبوية - التي أوردها المؤلف في المتن الفرنسي بنصها العربي باعتبار أنها موثقة في الأصل الفرنسي بمعرفة المؤلف ومنقولة مع النص المعرب . ولم أثبت كذلك من هوامش المؤلف إلا ما لا غنىً عنه. في حين أضفت بأحد الهوامش مقتبسات من «مختصر القضاء والقدر في الكتاب والسنة» للأستاذ الدكتور فاروق دسوقي والذي قمت بتلخيصه ، وذلك تحقيقًا للفائدة في موضوع القضاء والقدر. ولتوضيح نقاط أوجزها المؤلف في المتن الفرنسي إيجازًا شديدًا..

* إتبعت خطةً مختلفة في إثبات الآيات القرآنية في الفصل الثالث «الجزاء» موضحة في موضعها .

* أضفت المراجع العربية والأجنبية التي كانت قد سقطت من الأصل المعرب.

* ترجمت الفهرس التحليلي للقسمين (النظري والعملي) طبقًا للنص الفرنسي، بتفاصيلهما تحقيقًا للفائدة ولسهولة الرجوع إلى الموضوعات حيث لم يثبت بالتعريب سوى عناوين الفصول الرئيسية فقط .

* صححت كثيرًا من أسماء السور وأرقام الآيات وخاصة بفصل «الجزاء» .

* وفي كتـاب «الأخلاق العمليـة في القرآن» عدلـت ترجمـة كثـير مـن عنـاوين الموضوعات التزامًا بـالنص الفرنسـي، وأضفت ترجمةً عدة عنـاوين سـقطت ربما نتيجة أخطـاء مطبعيـة، كمـا أضفت أسمـاء السـور وأرقـام الآيـات في متن الكتـاب في نهايـة الآيات واختصرت عدة هوامش للمؤلف .

نتائج وحقائق أبرزتها الرسالة

في رسالة ماجستير[1] قدمت لكلية أصول الدين بالقاهرة اهتم الدكتور محمد البيومي عبد الواحد بدراسة منهج البحث الخلقي عند الدكتور دراز وفي نهاية الرسالة خَلُصَ الباحث إلى عدة نتائج نرى إثباتها لنؤكد أن الدكتور دراز قدم دراسة على أعلى المستويات وأرفعها . وأنه لم يكن بمقدور غيره أن يقدم إلى المكتبة الإسلامية خاصة والمكتبة الإنسانية عامة دراسة كهذه. فهي على المستوى العلمي الرفيع. لا نظن أن كلمات أيًا كانت تفي حقها من التقدير. ولنبدأ في عرض النتائج التى خَلُصَ إليها الدكتور محمد البيومي عبد الواحد ، وقد أضفنا إليها بعض الحقائق:

١- من دراسة المنهج عند الدكتور دراز وجدت أنه يعلم أن الحاسة الخلقية إنبعاثٌ فِطريٍ في الإنسان مخلوقةٌ معه يوم خُلِقْ .

٢- أنه لا مكان للأخلاق بدون عقيدة فعلى أساسها يُبنى صرح الأخلاق، فالإيمان القوي يلد الخلق القوي والخلق الضعيف مرده إلى ضعف الإيمان حتمًا. وعلى هذا فقد أسس منهجه على العقيدة .

٣- لقد جعل الهدف الرئيسي من منهجه إبراز الطابع العام للأخلاق الذي يعتمد على كتاب الله عز وجل وذلك من الناحيتين النظرية والعملية .

٤- أن الدكتور دراز بدأ منهجه بسماحة الأخلاق وأخذ من هذه البداية يُعالج القضايا الأخلاقية الواحدة تلو الأخرى حسب المفاهيم والمعايير التي تُعالج بها عند علماء الغرب متخذًا المنهج المقارن بين الحقيقة القرآنية والنظرية الغربية ميدانًا للأخلاق.

---

(١) د. محمد عبد الله دراز ومنهجه في البحث الخلقي ـ د. محمد البيومي عبد الواحد .
رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية أصول الدين بالقاهرة رقم ٢٠٦ .

٥ـ أنه جعل البحث في المنهج القرآني مأخوذ من النص الذي:

أ ـ يُظهر سمات الواجب.

ب ـ طبيعة السلطة التى ينبعث عنها الإلزام أو التكليف.

جـ ـ درجة المسئولية .

٦ـ جعل الواجب يقوم على فكرة «القيمة التي يستمدها من مثل أعلى» .

٧ـ قد جعل العقل والوحي مظهران لتلك الحقيقة الأساسية التي هي مصدر أساسيٌ للإلزام الخلقي .

٨ـ قصور النظريات الأخلاقية قديمها وحديثها وعجزها عن تقديم منهج أخلاق يتصف بالكمال والتمام والشمول والعموم. والأخلاق تشمل مطالب الإنسان عقله وروحه وجسده، دنياه وأخراه .

٩ـ أنه قد اختار المنهج المقارن والمناهج العلمية ليعري به نظرية الغير ويقارنها بالحقيقة القرآنية لبيان عجز النظرية وضعفها وقصورها، وأصالة الحقيقة القرآنية، واختار المنهج التكاملي من المناهج الفلسفية. فقد وقف به على حقيقة المذهبية بدون السير في متاهات النظرية وفروعها. كما اختار المنهج الديني الإسلامي في الأخلاق فهو أفضل المناهج الإنسانية لأنه يسير بنسبة عادلة بين متطلبات الروح والجسم والعقل وأن فيه الإلزام السماوي الذي يسمو فوق كل إلزام آخر .

١٠ـ أن المنهج الديني الإسلامي منهجٌ معصوم ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1] وأنه من الله خالق الإنسان فكيف لا يخضع له ويكون في هذا عزته وكرامته ﴿حم(١)تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(٢)كِتَابٌ فُصِّلَتْ

(١) فصلت : ٤٢ .

ءَايَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1] - ومن مراجعتنا لما كتبه علماءٌ ومفكرون حول «دستور الأخلاق في القرآن» برزت لنا حقائق عدة نضمها إلى النتائج السالفة لنرى بيقين أن الدكتور دراز كان مُجددًا عبقريًا وعالمًا فذًا . وأنه نموذجٌ رفيع لعالِم الدين قد لا يتكرر إلا كل حين .

١- ولعل من أبرز هذه الحقائق أن المؤلف المجدد لم يكن يكتب هذا العمل على أنه مجرد وسيلة إلى هدف هو نيل إجازة دكتوراة الدولة في الفلسفة من السوربون فقد كان بوسعه أن يحقق هدفه بأقل مما بذل من جهد ولكنه كان يحمل في ضميره رسالة هذا الدين[2] .

٢- ومن الحقائق التى أراد الدكتور دراز أن نعيها معه لنفيد منها .

أن القرآن الكريم يوجه خطابه إلى الإنسان الحي الواقعي بفضائله ورذائله، بقوته وضعفه، محبطًا بكل ما يكتنف حياته من صعاب وعراقيل تعوقه عن تحقيق الحياة الفاضلة. وفي مقدمتها الصراع بين هواتف الشيطان ونوازع النفس الأمارة بالسوء وبين الروح العلوية التي نفخت فيه فجعلته يتطلع إلى الارتقاء الروحي والسمو اللانهائي[3].

٣- كذلك نجد الحل لمشكلاتنا الحالية المعقدة وفي بؤرتها الأزمة الخلقية. نجده في نداء الدكتور دراز بكتابه منذ نحو نصف قرن، إذ يبرهن عن توافق الأعمال مع الشرع ومؤكدًا أن الأخلاق هي روح الشريعة التي من دواعي الفخر بها أنها تقيم مجتمعًا سعيدًا وقويًا ومتضامنًا، فالإسلام وسطٌ واعتدالٌ بين شريعة الخوف وشريعة الحب .

(١) فصلت : ٣ .

(٢) د. عبد الصبور شاهين - عن كلمته في تعريب الرسالة .

(٣) د. مصطفى محمد حلمي - عن مقدمته لمختصر الرسالة

٤ـ ثم يكتب لنا الدكتور دراز هذا التوجيه الذي يستحق بأن يكتب بأحرف من نور، وخلاصة القول فإن فكرة طاعة الله عز وجل لا تخلو من الاعتقاد بأن أوامره هي أحكم الوسائل لتحقيق أعظم الخير للإنسانية وللكون كله[1] .

٥ـ ومن الحقائق التي أبرزتها الرسالة . أن الدكتور دراز كان رائدًا في طريقه الجديد، ومن الإنصاف أن نذكر أن منطقه كان من القوة بحيث ألزم مناقشو الرسالة بأن يمنحوه مرتبة الشرف الأولى. وهي أعلى الدرجات العلمية في فرنسا. ولأن الرسالة غيرت المفهوم السائد عن الفلسفة الإسلامية بنوع عام، وعن فلسفة الأخلاق بنوع خاص، إذا كان الشائع المتداول في دوائر الاستشراق أن مفهوم الفلسفة الإسلامية ينحصر في المترجمات الإغريقية دون زيادة. فالعرب المسلمون مُترجمون لا مُوصلون. فجاءت هذه الرسالة لتثبت أصالة الفكر الإسلامي الفلسفي ولتعد القرآن الكريم منبعه الأول . كما أن الأخلاق الإسلامية لدى هؤلاء لم تُوصف بغير مجموعة من العظات والنصائح لاتخضع لفكرة شاملةٍ ولا تتقيد بمنطق عام. فجاء القسم النظري من الرسالة ليؤكد قوة النظرة الفلسفية لدى المسلمين وهي نظرةٌ حديدةٌ تستمد عناصرها من القرآن، ولا تعتمد على وافد الترجمات[2] .

٦ـ أن الدكتور دراز في كتابه يتسم بجاذبية خاصة كالمغناطيس، تشدك إليه، وتغمرك عند قراءته دوافعٌ قويةٌ للعمل بارشاداته المخلصة. ولاتفسير لهذه الجاذبية إلا روح الإيمان والإخلاص لمؤلفه الذي يرسم لك لوحات جميلة بفصول الكتاب ـ بالنص والعقل والعاطفةـ بما يمتعك ويسحرك فتنقاد معه برفق إلى الروح الشفافة لإنسان عاشق للحق والخير والعدل، ويُريدُها لبني آدم جميعًا[3] .

---

(١) د. محمد عبد الله دراز عن مقدمته للرسالة .

(٢) د. محمد رجب البيومي ـ النهضة الإسلامية في سِيَرِ أعلامها المُعاصرين حـ٥ .

(٣) د. مصطفى حلمي ـ مرجعٌ سابق .

٧- كان خلف هذا العمل الضخم، وهذا الجهد الجبار وتحمل كافة المصاعب في إنجازه قوةٌ روحيةٌ عالية، ومعوناتٌ ربانيةٌ غامرة، وتوفيقاتٌ إلهيةٌ هادية .

وبفضلها استطاع هذا الرجل القرآني - أن يُواصل السعيَّ الطويل رغم الصعاب التي فرضتها عليه هذه الحرب المدمرة التي عاصرها .

٨- إن الاعتكاف الطويل من أجل البحث عن جديد يُسعد البشرية عملٌ شاقٌ لايستطيعه إلا قلةٌ من البشر موهوبة يهون أمامها الوقت والمال وتبقى اللذة في نوال النتيجة الهاجسُ المُلح على الدوام، فاللذة الفائقة في المعايشة هي القادحة لشرارة الإبداع والتألق ، والدافعة للنبوغ والاقتدار ولذا فإن أولئك الذين يعيشون أفكارهم ويخلصون لها قليلون جدًا، إن لم يكن في حكم النُدرة لأنهم أصحاب ريادة في المجتمع البشري، وهكذا كان الدكتور دراز في عمله الكبير، إنه يبذل وقته، ويعطي جهده، ويستثمر طاقته في زرع الخير في نُفوس الناس. ودلالتهم على المعروف بأرقى صور البيان والتبليغ، إنه يستثمر الفرص السانحة للدعوة، وهو بهذا في قائمة صُناع الحياة، فما قدمه في رسالته جهدًا وعطاءًا، بذلاً وإخلاصًا موهبة وإبداعًا، تأثيرًا وجاذبية، يستحق معها أن يكون من صناع الحياة الإسلامية.

٩- وكتاب دُستور الأخلاق في القرآن بلا أدنى مُبالغة أعظم كتابٍ كُتب عن الأخلاق في القرآن ودليلٌ على إن الرجال العظام الذين أنجبتهم هذه الأمة المسلمة إنما هم الرجال الذين أُشربت نُفوسهم رُوح الإيمان والعقيدة وعاشوا حياتهم للحق والخير والفضيلة.

١٠- وأخيرًا فالدكتور دراز بما قدم به من تأصيلٍ لعلم الأخلاق القرآني نحسبه من العلماء المجاهدين القلائل، الذين أخلصوا العمل إبتغاء مرضاة الله ، وهو سبحانه لن يضيع أجر من أحسن عملاً ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦] .

طبعات الرسالة

١ـ الطبعة الفرنسية:

حين حصل الدكتور محمد عبد الله دراز عام ١٩٤٧م على دكتوراه الدولة من جامعة السوربون بباريس وكان موضوع الرسالة التي تقدم بها «دستور الأخلاق في القرآن» دراسةً مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن ، كان لها صدى مُدَوِّيًا في جامعات الغرب، وعالم الشرق الذي سمع بهذا العمل الجليل وحُرِمَ منه طيلةَ ربع قرن حتى قيض الله لهذا العمل من كان له أهلٌ من تلاميذ الأستاذ الإمام .

والعجيب أن مشيخة الأزهر بناءًا على أوامر الديوان الملكي قامت عام ١٩٥٠م بطبع النسخة الفرنسية من الرسالة ثم أهملت ترجمتها إلى العربية للإنتفاع بها.

وعندما أُنشيء مجمع البحوث الإسلامية وبدأ عملية النشر، كان من المتوقع أن تكون باكورة عمله في النشر هذه الرسالة الفذة، لكن المجمع تجاهلها بضعة عشر عاما.

بالرغم من إسرافه في طبع كتب التصوف والرسائل الجامعية الأزهرية التي هي أقل من أن تقارن برسالة الدكتور دراز... وشاء الله أن يُحرم من هذا الفضل الأزهر لتحظى به دار نشر عربية، على أن لطبع الرسالة بالنص الفرنسي عام ١٩٥٠ قصة يجب أن نذكرها ها هنا وندع الدكتور دراز نفسه يرويها لنا من خلال المذكرة التى رفعها إلى فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر بناءًا على إشارة من جلالة الملك «فاروق».

عرض الدكتور دراز الرسالة على المطابع الآتية لتقدير تكاليفها:

(المطبعة الأميرية ـ مطبعة بنك مصر ـ مطبعة المعارف / ثم بناءًا على إشارة وتوجيهات الديوان الملكي عرض الكتاب على مطبعة شندلير وغيرها وكانت نتيجة البحث أن جملة التكاليف (من طبع وورق وتغليف وتجليد إلخ) قدّرت بأثمانٍ متفاوته على حسب المطابع. وكان أعلى تثمين هو المقدم من المطبعة الأميرية (١٨٠٠ جنيه)

وأعدل سعر هو الذي قدّمته دار المعارف (٨٠٠ جنيه) وقيل إنها قد تقبل أقل من ذلك قليلاً. أما المطابع الأخرى فيقع تثمينها بين السعرين فمطبعة شندلير مثلاً تطلب ١٣٠٠ جنيه) ومع ذلك لا تضمن إنجاز العمل في أقل من ستة أشهر، بينما مطبعة المعارف تعد بإنجاز الطبع في شهرين ونصف تقريبًا .

ولما كانت إدارة الأزهر قد مالت أخيرًا - لأسباب مالية - إلى تكليف مطبعة الأزهر نفسها بإخراج الكتاب، فقد أشار الديوان العالي بأن يُوخذ رأي خبير فني قبل البت في الموضوع ووقع اختياره على سعادة مدير مطبعة دار الكتب ، فقدم له نموذجٌ من عمل مطبعة الأزهر ونموذج من عمل دار المعارف للمقارنة وبعد أن لاحظ سعادته على نموذج الأزهر بعض ملاحظات فنية يمكن تداركها، قال إن الملاحظة الجوهرية هي أن مطبعة الأزهر تسير على الطريقة القديمة : طريقة صف الحروف المنفصلة باليد؛ وفي ذلك ما فيه من ضياع الوقت وقلة نظافة العمل. بخلاف مطبعة المعارف فإنها تصب كلماتها بآلات فنية دقيقة تمتاز بنظافتها وإتقانها وسرعتها، وأضاف إلى ذلك أن مطبعة دار المعارف على الخصوص معروفةٌ بأنها مستعدة إستعدادًا كافيًا لمثل هذه الأعمال الكبيرة، وأنها يتولاها أصحابها بأنفسهم ويحرصون كل الحرص على رفع سمعة محلهم مهما كلفهم ذلك. وكانت خلاصة رأيه أنه ينبغي أن يُسند الأمر إليها بكل اطمئنان هذا هو تقديره من الوجهة الفنية أما من حيث التثمين فواضحٌ أنه أرخص من سائر المطابع .

نعم أنه كان من المرغوب فيه ألا يُحرم الأزهر من شرف إخراج الكتاب في مطبعته وقد كان المؤلف يميل شخصيًا إلى تحقيق هذه الرغبة لو كانت مطبعة الأزهر معروفةً باستعدادها لطبع هذه الكتب، أو لو أنه سبق لها القيام بطبع كتاب ما ، وخصوصًا باللغات الأجنبية، أمَّا وهذه هي التجربة الأولى على غير استعداد فإنه يُخشى جدًا من الإقدام عليها في عملٍ كهذا سيهدى إلى جلالة الملك وسيعرض على جامعات أوروبا

وغيرها . والذي يزيد تخاوفه من هذه الناحية هو أن كل من سمع بالمشروع في داخل الأزهر أو خارجه - ممن لهم إلمامٌ بشئون الطباعة - لم ينصحوا بطبع النص الفرنسي في مطبعة الأزهر بل حذّروا من ذلك تحذيرًا شديدًا .

هذه هي حقيقة الوضع أراد الدكتور دراز أن يبسطها أمام الأزهر والديوان العالي ، ليكونا على جليةٍ من الأمر قبل الشروع في الخطوات العملية، وليخلي مسئوليته الشخصية من نتائج هذه التجربة .

هذا وقد ألمح الدكتور دراز في مذكراته أن العقبة المالية التى كانت تدعو إلى الإلتجاء للطبع الداخلي ليس لها أثر، وأن ميزانية الأزهر في باب «نشر الثقافة في البلاد النائية» لا يزال بها نحو (١٧٠٠جنيه) يمكن الإنتفاع ببعضها في طبع الكتاب بطريقة جيدة مضمونة لائقة .. وبذلك تتحقق رغبة فضيلة الأستاذ الأكبر التي كان قد أعرب عنها في أوائل مايو (عقب القبول السامي للإهداء) حيث قال فضيلته ما مضمونه : «حيث إن الكتاب سيهدى لجلالة مولانا فلا ينبغي أن نعهد به لمطبعتنا، بل يجب أن نبحث له عن مطبعة كبيرة محترمة، متخصصة في الطباعة باللغات الأجنبية »[١].

هذا وقد استجاب الأزهر مشكورًا لرغبة الأستاذ الإمام وطبع الكتاب في دار المعارف طبعةً فاخرة أنيقة. وتم نشر الكتاب بمعرفة المطابع الجامعية بفرنسا سنة ١٩٥١.

٢- وللصدى الواسع والكبير الذي أحدثته الرسالة في الشرق والغرب . وتعطش العالم الإسلامي لقراءة الرسالة . قامت مجلة حضارة الإسلام التي أسسها الدكتور مصطفى السباعي رحمهُ الله ، بترجمة فصول من الرسالة ونشرها ليطالعها قراء العربية[٢].

---

(١) من تقرير مرفوع لفضيلة الأستاذ الأكبر (أوراق الشيخ الخاصة) .

(٢) مجلة «حضارة الإسلام» كانت تصدر في دمشق أنظر العددان السابع والثامن السنة الثامنة ١٣٧٨هـ -١٩٦٨م.

٣- ثم قيض الله لهذه الرسـالة الدكتور عبد الصبور شـاهين أحد تلاميذ الدكتور دراز فقام بترجمتها في أواخر الستينات وأوائل السبعينات من القرن الماضي وخرجت إلى العالم العربي والإسلامي في طبعتها الأولى عام ١٩٧٣م وقام بنشرها دار البحوث العلمية بالكويت ومؤسسة الرسالة في بيروت وتقع في زُهاء ثمانمائة صفحة، ثم توالت طبعاتها حتى وصلت إلى أكثر من عشر طبعات .

٤- وحين احتفل العالم الإسلامي بإستقبال القرن الخامش عشر الهجرى أعيد طبع النسخة الفرنسية بمعرفة وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالمملكة المغربية سنة ١٩٨٣م وطبع أكثر من مائة ألف نسخة ليتم توزيعها على غير الناطقين بالعربية.

٥- ثم قام الباحث والمترجم الأستاذ الكبير (محمد عبد العظيم علي) بترجمة مختصر للرسالة يسهل تناوله واستيعابه للقارئ العادي غير المتخصص . وأسماه مختصر دستور الأخلاق في القرآن وطبعته في مصر دار الدعوة بالإسكندرية بتقريظ الأستاذ الدكتور مصطفى محمد حلمي الأستاذ بكلية دار العلوم بالقاهرة .

بيان توزيع رسالتيه في المكتبات الأوروبية

تطلع العالم الأوروبي لقراءة هذا العمل الكبير بعد أن سمع عنه في الصحف الغربية بأيدي كتابهم الذين لم يسعهم سوى الإعجاب والتقدير البالغ لهذا العمل الضخم الذي يُعَرف العالم الأوربي بالإسلام معرفةً صحيحة وبفلسفته الأخلاقية الموائمة للفطرة .

ولمكانة الرسالتين **«مدخل إلى القرآن الكريم»** و**«دستور الأخلاق في القرآن»** طبع الأزهر الشريف الرسالتين باللغة الفرنسية على نفقته الخاصة. وبعد أن فرغ الأزهر من الطباعة وندب الدكتور دراز ليمثل الأزهر في مؤتمر الشريعة الإسلامية بباريس في شهر يوليو سنة ١٩٥١م قام الدكتور دراز بالسفر من الاسكندرية في ٢٨ يونيو إلى مرسيليا ومعه النسخ المستحقة للسوربون ولندع المجال للدكتور دراز يُحدثنا عن توزيع الرسالتين في المكتبات الأوربية لندرك أهمية الكتاب والعجز الكبير الذي سده الكتاب في المكتبات الأوروبية .

يقول الدكتور دراز[1] :

كان عليّ أن أُوَصِل النسخ المستحقة للسوربون من رسالتيَّ الفرنسيتين عن القرآن وآدابه، فقمت بذلك بمجرد وصول الكتب إلى باريس، في ١٧ يوليو. ولما كانت النسخ التي تتسلمها السوربون لا تحفظ كلها بمكتبتها ، بل يوزع الجانب الأكبر منها على المكتبات الجامعية الأخرى، بدا لي أن أتعرّف طريقة هذا التوزيع وحدوده فاتصلت بأمانة المكتبة العامة وطلبت إليها قائمةً بأسماء الجهات التي تتولى هي الإهداء إليها ، حتى إذا أراد الأزهر أن يُهدي نسخًا من عنده إلى بعض المكتبات لا يتكرر

(١) انظر التقرير المرفوع إلى مشيخة الأزهر عن المهمات التي قام بها الدكتور دراز في رحلته إلى باريس مندوبًا عن الأزهر في شهر يوليو سنة ١٩٥١م مطبعة الأزهر .

الإرســال إلى جهــةٍ واحدة. وقـد أجـابت أمانــة المكتبـة دعوتـي، وقدمت إليّ البيـان المطلوب، ومنه يتبين أنها توزع على النحو الآتي:

٣ مكتبات جامعية في باريس (مكتبـة السوربون، والمكتبة الأهليـة، ومكتبة مدرسة المعلمين العليا) .

١٦ مكتبة جامعية في أقاليم فرنسا.

٤ مكتبـــات جامعيـــة في هولنـدا (بجامعــات : أمســـــتردام، وجرونـنـج، وليدن ، وأوترخت) .

٤ مكتبات جامعية في بلجيكا (بجامعات : بروكسل والمكتبة الملكية وجاند، ولييج، ولوفان) .

مكتبـات جامعية في سويسـرا (بجامعات: بال، وبرك، وفريبورج وجنيف ولوزان وزيوريخ) .

١ مكتبة جامعية في الدانمارك (بجامعة كوبنهاجن) .

١ مكتبة جامعية في فنلندا (بجامعة هيلز ينجفورس) .

٢ مكتبتين جامعيتين في السويد (بجامعات : لند ، وأوبسال) .

٢ مكتبتين جامعيتين في إنجلترا (أكسفورد وكمبريدج) .

٢ مكتبتين جامعيتين في أسبانيا (مدريد ـ وبرشلونه) .

٤ مكتبات جامعية في الولايات المتحدة :

ـ جامعة جونس هوبكينس في بالتيمور، بولاية ماريلاند.

ـ جامعة هارفارد في كمبريدج، بولاية ماساشوسيتس.

- جامعة ييل في نيوهافن، بولاية كونيكتيكوت.

- جامعة كولومبيا في نيويورك ، بولاية نيويورك هذا عدا جامعات ريجا، وأوسلو، وبلغراد، وبراج، وبوخارست، وفارصوفيا، وفينا، وروما، وكوامبر (بالبرتغال) وبيونس إيرس .. التي اعتادت السوربون الإهداء إلى مكتباتها وإن كانت الإتصالات بينها الآن موقوفةً مؤقتًا .

فجميع المكتبات المذكورة، المتصلة منها والموقوفة، لا داعي لأن يُرسل الأزهر إليها شيئًا من رسائل الدكتوراه حتى لا يتكرر الإهداء بغير موجب. أما إذا أريد معرفة البلاد التي فيها جامعات أخرى فإنه يحسن الإطلاع على دليل الجامعات الألماني المسمى مينيرفا (Minerva) أو دليل الجامعات الفرنسي المسمى (أنديكس جينيراليس) .

على أنه يمكن الإهداء إلى أيِّ مدرسة فرنسية أو مؤسسة فرنسية ثقافية غير جامعية في أيّ مكان: في لوندره، وروما، واستامبول، وبيروت، ومصر وغيرها، لأن هذه الجهات لا ترسل إليها السوربون شيئا، ولا يفوتني هنا أن أبلغ مشيخة الأزهر توصية مكتب الصحافة بالسفارة المصرية بباريس بأن يختص الأزهر جامعة (ليدن) بمزيد من العناية لأنهم لمسوا فيها الإهتمام البليغ بكل ما يكتب عن الإسلام والشرق وبلاد العرب.

إنتهى بيان الدكتور دراز حول توزيع رسالتيه للدكتوراه .

ولعل القارئ بعد هذا البيان يُدرك القيمة الإعلامية الكبيرة لهذا السفر العظيم الذي كان فتحًا للإسلام في العالم الأوربي فقد أسلم عددٌ كبيرٌ بسبب روح الإخلاص التي سيطرت على هذا الكتاب ومؤلفه من أعظم علماء الأزهر على الإطلاق . فكان دراز بهذا العمل الكبير الرائد الأول والسفير الأمين للإعلام الإسلامي في العصر الحديث. لما للآثار الكبيرة التي تركتها رسالتيه في المحيط الأوربي والعالم الإسلامي على السواء.

وبالإضافة إلى بيان توزيع الرسالتين في المكتبات الأوربية والأمريكية أقدم هنا قائمةً أخرى بأسماء المجلات والصحف والجهات العلمية والأدبية في أوربا وأمريكا التي بعثت إلى الأزهر الشريف ليبعث لها نُسخًا من الكتاب مجانًا لكتابة تقارير عن الكتاب لجمهور الغرب وقد كان الدكتور دراز رحمه الله حريصًا غاية الحرص على تلبية رغبات الإعلام الغربي ممثلاً في صحفه ومجلاته الزائعة الصيت. ليؤدي الكتاب رسالته المنشودة في التعريف بالإسلام في المحيط الغربي. وقد عثرت على بيان توزيع الإهداء ضمن أوراق الشيخ الخاصة بمكتبته قبل نقلها إلى مكتبة الإسكندرية الدولية .

بيان توزيع الرسالة على الصحف الغربية[1]

المقدمة:

هذه قائمة بأسماء المجلات والصُحف والجهات العلمية والأدبية في أوروبا وأمريكا التي تقرر أن تُهدى إليها نُسخٌ مجانًا من كتاب «دستور الأخلاق في القرآن» .

وتعهد بالقيام بإجراءات الإهداء مكتب الصحافة المصرية بباريس، وإدارة الصحافة الجامعية الفرنسية بها .

١- في فرنسا:

١- نشرة البحوث العلمية الدينية .

٢- جريدة الديلي ميل.

٣- جريدة الفيجارو.

٤- جريدة الموند.

٥- جريدة الباريزيان ليبرم .

٦- جريدة الأنباء الأدبية .

٧- مجلة تاريخ الأديان .

٨- مجلة الإلهيات والأخلاق.

٩- مجلة الحياة العقلية .

٢- في خارج فرنسا: (أمريكا)

١- المدرسة الحرة للدراسات العليا.

٢- الفلسفة التجريدية .

٣- البحوث والظواهر الفلسفية.

٤- الدراسات الإلهية.

٣- بلجيكا: إيرنيكن

٤- إيطاليا: مجلة تاريخ الفلسفة .

٥- البرتغال: المجلة البرتغالية للفلسفة.

٦- سويسرا: سجل علم النفس.

وعدا ذلك أهديت نسخة لكل من :

مكتبة مسجد باريس، ومكتبة البعثات المصرية بها، ومكتبة مكتب الصحافة المصرية بها، وسفير مصر بباريس ورئيس مجلس النواب السابق محمد محمود بك خليل، كما أودعت سبع نُسخ بالدفتر خانة الفرنسية وغيرها طبقًا للتعليمات القانونية.

قالوا عن الرسالة

تبرز الطابع العام للأخلاق

إن الهدف الرئيسي من هذا البحث هو إبراز الطابع العام للأخلاق التي تستمد من كتاب الله الحكيم، وذلك من الناحيتين النظرية والعملية . أما عن البحث في الأسس النظرية التي تقوم عليها المبادئ الأخلاقية في القرآن الكريم، فإن المؤلف يُعبر لنا، دون مُواربة ،عن شعوره بأنه كان يضع قدميه لأول مرة على أرض لم تطأوها قدمٌ من قبل: لكن وعورة المسالك التي عزم بمشيئة الله ـ على الخوض فيها لم تضعف من عزيمته، بل كانت حافزًا له على تحدي الصعاب في سبيل خدمة دين ا لله الحنيف.

أ.د. السيد محمد بدوي
أستاذ علم الإجتماع بجامعة الإسكندرية
نقلاً عن مقدمته لدستور الأخلاق في القرآن

رسالة ضمير صادق الإيمان

من العسير أن تقوم ثورةٌ أخلاقيةٌ دون منهاج ترتسمه، والكتاب الذي نقدمه اليوم يتضمن هذا المنهاج، فهو «دستور الأخلاق في القرآن» وهو رسالة ضمير صادق الإيمان ، عميق الإدراك لمشكلات عالمه، وبخاصةٍ عالم العروبة والإسلام، سديد النظرة إلى ما جاء في القرآن من إشارات عميقة، دقيق الحكم في كل ما قدم من مناقشاتٍ تفسيرية أو مقارنات فلسفية .

وما أحسب مُؤلفه ـ رضوان الله عليه ـ إلا راضيًا تمام الرضا في برزخه، وهو يشرق من الملأ الأعلى ليرى كلمته الصادقة تتحرك من جديد، بلغة القرآن لتسهم في صنع الحياة، وبناء الإنسان المسلم الذي لا يجد قدره إلا في مجالات الصراع، وميادين القتال،

ضد أعداء الله وأعداء الأخلاق القرآنية ..

وأترك القـارئ الكريم يدلف إلى جو الكتاب، يتنسـم عبيره، ويقطف مـن ثماره، ويحمل رسالته السامية إلى سائر الناس.

أ.د. عبد الصبور شاهين
من كلمته في تعريب الرسالة

دراسة على المستوى الرفيع

الدكتور محمد عبد الله دراز من العلماء الأفذاذ القلائل الذين توافرت لهم بسطةٌ في العلم وقوةٌ في الإيمان، وعزة في النفس، والذين قُدر لهم أن يعرفوه عن كثب يدركون أنه نموذجٌ رفيعٌ لعالِم الدين، قد لا يتكرر إلا كـل حين، أما دراسته (دستور الأخلاق في القـرآن) فهي على المستوى الرفيع، ولا أظـن أن كلماتٍ أيًّا كانت تفـي حقها من التقديـر ـ لقد أدى العالم الجليـل دوره وحسبه من العقوق لفكره العظيـم أن ظل عمله الكبير في انتظار التعريب زهـاء ربع قرن ولسـت أدري بعد إنجاز المهمـة الصعبـة إن كانت جامعاتنـا الإسـلامية وفي مقدمتهـا جامعـة الأزهـر سـيقدر لهـا أن تفيد من هذه الرسـالة المقارنـة أم أن العقوق الذي رافق النص الفرنسـي سـوف يشـمل النص العربي أيضًا .

إن مثل هـذا العالم الجليـل يحترم نفسـه ويعتز بعلمـه قلمـه ، لذلـك قدم إلى القارئ دراسة تقرأ وكتابًا يجد مكانه في مكتبة الفكر الإسلامي.

محمد عبد الله السمان
نقلاً عن مجلة الوعي الإسلامي عدد ١١٨ شوال ١٣٩٤هـ
ومجلة الأمة القطرية عدد ٤ ربيع الآخر ١٤٠١هـ

غيرت المفاهيم السائدة

حين تهيأ الدكتور محمد عبد الله دراز لإعداد رسالة الدكتوراه في الفلسفة بجامعة السوربون لم يحتطب في حبل المستشرقين . كما نعهد لدى كثير من المبعوثين الذين يخضعون إلى توجيهات مريبة، فيكتبون عن الإسلام والعربية ما يرضي نزعات من يُشرفون على رسائلهم. وفيهم من يشتط فيعبر عن كل ما يودون إذاعته من أراجيف لينال الحُظوة لدى قومٍ يسوؤهم أن يظهر الإسلام في مظهره الشريف.

لقد قدّر د. دراز أنه مبعوث الأزهر، وأن عليه أن يصحح أخطاء من جحدوا الإسلام عن عمدٍ أو جهل، وما دام لديه المنطق الصحيح فخريٌّ له أن يخوض المعركة مع خصومه الذين هم في الوقت نفسه أساتذته الفاحصون والمشرفون وإليهم يرجع الأمر في تقدير الرسالة قبولاً أو رفضًا!

ومن الإنصاف أن نذكر أن منطق الدكتور دراز كان من القوة بحيث ألزم مناقشي الرسالة بأن يمنحوه مرتبة الشرف الأولى من دكتوراه الدولة! وهي أعلى الدرجات العلمية في فرنسا؛ لأن الرسالة قد غيرت المفهوم السائد عن الفلسفة الإسلامية بنوعٍ عام وعن فلسفة الأخلاق بنوعٍ خاص .

أ.د. محمد رجب البيومي
عضو مجمع البحوث الإسلامية
ورئيس تحرير مجلة الأزهر
نقلا عن كتابه «النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين»

فتحًا جديدًا غير مسبوق

لا ريب أن الدكتور محمد عبد الله دراز بأعماله الفكرية هذه قد أضاف إضافات حقيقية للفكر الإسلامي ،وتعد رسالته عن الأخلاق فتحًا جديدًا غير مسبوق فلقد تناول فلسفة الأخلاق الإسلامية كثيرٌ من الباحثين المسلمين من أمثال ابن مكسويه والغزالي وابن حزم وغيرهم، ولكن أحدًا لم يصل إلى (استخراج) منهج القرآن الأخلاقي كاملاً ومفصلاً ومحررًا عن المفاهيم اليونانية التى تأثر بها من كتبوا في القرن الثالث والرابع مثل ما وصل إليه الدكتور دراز .

أ.د. أنور الجندى
نقلا عن كتابه ـ أعلام الإسلام ـ دار الإعتصام

تؤكد أهمية الإعلام الإسلامي

رحم الله أستاذنا الدكتور محمد عبدالله دراز ذلك أنه يحتل مكانةً رائدة في الفكر الإعلامي الإسلامي المعاصر لأنه أدرك منذ وقت مبكر أهمية الإعلام بالإسلام بين غير الناطقين بالعربية، فقد جاءت بحوثه ومؤلفاته التي نشرها بالفرنسية مثل «دستور الأخلاق في القرآن» يؤكد أهمية الإعلام الإسلامي في العالم المعاصر باللغات المختلفة.

لاسيما أن الإسلام قد أُنزل للناس كافة، وأنه لم ينزل للعرب فقط وإن الإعلام الإسلامي فريضة واجبةٌ على كل مسلم .

هذا الإيمان هو الذي دفع بأستاذنا المفكر الكبير الدكتور محمد عبد الله دراز إلى انتهاج هذا الطريق .

ويختلف الدكتور دراز في كثير مما ذهب إليه الفلاسفة والدارسون في الفكر الأوربي ويقدم الحلول الناجعة لأعوص أو أصعب المشكلات التى يواجهها الإنسان الأوربي

كلما تقدم في العلم .

ومن هنا كان الاحتفاء في فرنسا بصفةٍ خاصة بهذا البحث القيم عن «دستور الأخلاق في القرآن» مؤكدًا ما نذهب إليه من أن الدكتور دراز من أهم رواد الإعلام الإسلامي المعاصر ليس على صعيد الإعلام المحلي الداخلي وإنما على صعيد الإعلام الدولي .

أ.د. عبد العزيز شرف
رئيس الصفحة الأدبية بالأهرام
نقلاً عن إذاعة القرآن الكريم بالقاهرة
برنامج خاص عن الدكتور دراز

رسالة النور والصفاء

رغم أني اشتريت كتاب «دستور الأخلاق في القرآن» الطبعة الفرنسية التي طبعتها دار المعارف، والطبعة العربية التي طبعتها مؤسسة الرسالة : فقد حالت بيني وبين قراءته كاملاً شواغل علمية .

ثم نأى بي العهد، غير أن تعلقي به، عصمه من أن ينزلق انزلاقًا في دائرة النسيان وحين صح العزم مني وخلتني المشاكل، نهضت لقراءة الكتاب، ورغم ضخامته وجد ثقافته لم يمسني نصبٌ ولا لُغوب، ولم يأخذني ملَلٌ ولا سأمٌ ولا أُخال أن شيئًا من هذا يصادفك وأنت تقرأ كتابًا للشيخ محمد عبد الله دراز لا أستطيع تفسيرًا لتلك الميزة، إنما قد استطيع استلهامها من وحي بيان الشيخ، ومنهاجه العلمي، الذي يحمل طابع النور والصفاء.

لقد كان منهج الشيخ واضحًا كل الوضوح، عميقًا كل العمق، يعكس إحاطته

بالثقافة الغربية، وتشبعه بالثقافة الإسلامية الأصيلة، ولقد كان رائدًا في الدراسات المقارنة بين ثقافتين : الإسلامية ، والغربية في حيادٍ يحوطه حرارة الإيمان قدم حلولاً للمشكلة الأخلاقية ، كحل نوذجي للقلق الذي انتاب حضارتنا، وكحل للإنسان المعاصر، الذي وقع في براثن التوتر، وعدم الأمان فأفرز جوانبها السيئة والوحي الإسلامي، فأصلح شأن العقل وشأن الإنسان، وقد عَمُرَ كتاب «دستور الأخلاق في القرآن» بالموضوعات التي تتعاون على حل المشكلة الأخلاقية.

أ.د. محمد إبراهيم الفيومي
نقلاً عن مقال له بمجلة الأزهر عدد رمضان ١٤٢١هـ

الكتاب الأم في الأخلاق

ولاشك أن أيّ باحث في الأخلاق الإسلامية لابد له من الإستناد إلى كُتب ومقالات الدكتور محمد عبد الله دراز - رحمه الله - لأن هذا العالِم الجليل قد استكمل وسائل البحث التي أهلته للخوض في ميدان علم الأخلاق لتكوينه الإسهاميُّ الأصيل أولاً ، ثم اتقانه للغة الفرنسية واستيعابه للثقافة الفلسفية الغربية القديمة والحديثة .

ثانيًا: حصل على درجة الدكتوراه من فرنسا على رسالته بعنوان «دستور الأخلاق في القرآن» - دراسةٌ مقارنةٌ للأخلاق النظرية في القرآن وقد وفق وبرع في الإحاطة بالقانون الأخلاقي في القرآن الكريم بمنهج جديد لم يسبقه إليه أحدٌ فيما نعلم - ويعد كتابه من أمهات الكتب في علم الأخلاق ، بل الكتاب الأم في الأخلاق الإسلامية لأنه سد فراغًا في هذا اللون الخاص من الثقافة الرفيعة .

د. مصطفى محمد حلمي
نقلا عن كتابه «الأخلاق بين الفلاسفة وحكماء الإسلام»
ومقدمته لمختصر دستور الأخلاق في القرآن

ثمرة بحوث واسعة

هذا الكتاب منهاجٌ كامل - علميٌّ وعمليٌّ - لحركة اصلاح أخلاقية، وهو ثمرة بحوث واسعة النطاق، لم تترك صغيرةً ولا كبيرة تتصل بعلم الأخلاق شرقًا وغربًا - في أي ثقافة أو حضارة أو دين إلا وزنها المؤلف بميزان القرآن وعرضها عرضًا أكاديميًا أمينًا وبناءً من أجل خير الإنسانية جمعاء .

أ. محمد عبد العظيم علي

نقلاً عن مقدمته لمختصر دستور الأخلاق في القرآن

عقتها مناهجنا الجامعية

والحق أن عندنا مؤلفًا عظيمًا في الأخلاق الإسلامية هو «دستور الأخلاق في القرآن» للمرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز ، لكنه لم يعرف طريقة إلى مناهجنا الجامعية كسائر مؤلفات الأستاذ المودودي والشهيد سيد قطب، ومالك بن نبي، ومحمد قطب والاستاذ العلامة أبو الحسن الندوي، وغيرهم من كبار المفكرين المسلمين المعاصرين مع تسليم المتخصصين بأن لهذه المؤلفات أثرها الحاسم في تشكيل الفكر والسلوك .

أ. د. أحمد عبد الرحمن إبراهيم

نقلا عن كتابه (خلق القرآن)

المبادئ والمعوقات ط١ ١٩٨٦م

أبرزت أصالة الحقيقة القرآنية

في هذا الكتاب اختار الدكتور دراز المنهج المقارن والمنهج العلمي ليُعري به نظرية الغير، ويقارنها بالحقيقة القرآنية لبيان عجز النظرية وضعفها، وقصورها وأصالة الحقيقة القرآنية، واختار المنهج التكاملي من المناهج الفلسفية فقد وقف به على حقيقة المذهبية بدون السير في متاهات النظرية وفروعها كما اختار المنهج الديني الإسلامي في الأخلاق فهو أفضل المناهج الإنسانية لأنه يسير بنسبة عادلة بين متطلبات الروح والجسم والعقل وأن فيه الإلزام السماوى الذي يسمو فوق كل إلزام آخر .

أ.د. محمد البيومي عبد الواحد

عن رسالته د. محمد عبد الله دراز ومنهجه في البحث الخلقي
رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية أصول الدين ـ القاهرة رقم ٢٠٦

نشرت الإسلام بوسائل الحضارة الحديثة

الأستاذ الدكتور / محمد عبد الله دراز من كبار العلماء الذين خدموا القرآن والفلسفة وعلم الأخلاق، ومن الرواد الأزهريين الأوائل، الذين اتصلوا بالثقافة الغربية وأوسعوا لها فسيحًا من علمهم، وعميقًا من تأملهم، وهو من الذين بلغوا الفكر الإسلامي بوسائل الحضارة الحديثة لغةً ومنهجًا .

الأستاذ / عمر مكاوي

من كلمة له قدم بها مقدمة الدكتور دراز لكتاب
مالك بن نبي (الظاهرة القرآنية)

تخدم الفكرة الإسلامية

إن الدكتور محمد عبد الله دراز قام باختراق العقل الغربي، واستطاع في عام ١٩٤٧ إن يُوظف مقدمات الفكر الغربي ثم يخرج بنتائج تخدم الفكرة الإسلامية لا على مستوى التنظير فحسب، وإنما في الإلزام والمسئولية ، بل إنه وضع دستورًا أخلاقيًا مستنبطًا من القرآن الكريم .

أ. د. خالد فهمي

ندوة الدكتور محمد عبد الله دراز وجهاده العلمي
العدد ٣٩٨ من جريدة آفاق عربية
الخميس ١٦ ذو القعدة ١٤١٩هـ - ٤ مارس ١٩٩٩م

تؤكد أن نكبة كل الحضارات بسبب غياب العنصر الأخلاقي

كنت في حياتي أتمنى أمنيةً واحدة، وهي أن أتعرف عن قرب على هذا الرجل العظيم الدكتور محمد عبد الله دراز واستجاب القدر الأعلى أن نكون سويًا أعضاءً في بعثة الأزهر الشريف إلى باريس وبقينا في هذه العاصمة حوالى عشرة أعوام حيث كان الشيخ بالنسبة لي ولجميع أعضاء البعثة قائدًا ومرشدًا ومربيًا ووالدًا يتكفل بأمرنا جميعًا.. وخلال معايشتنا له في باريس علمت أن معلمنا كان مشدودًا لموضوع بحثه منذ أول يوم وصل فيه إلى باريس فلم يتوقف لحظةً عن قراءة القرآن، وكنت أراه يتوقف بعد كل آية ويستخرج قاعدة أخلاقية، وكان يقارنها بكل نظرية أو كل نظام فلسفي، وكان يؤكد أن نكبة كل الحضارات هي غياب العنصر الأخلاقي، وأكد أن القرآن هو أساس كل تعليم بشري وكل خُلق عملي، ويجب علينا وبشكل مطلق محتم أن نقتبس منه النظام الأخلاقي لتحققه البشرية وحينئذ تتحقق السعادة الدائمة. وأكد أن الناس لو توجهوا لمبادئ الأخلاق في القرآن لتحقق العدل.

إنـه شـرفٌ لي أن أقدم إلى مجلـة الأزهر عملٌ كبير لمعلم عظيم وصديق فاضل - الدكتور محمد عبد الله دراز «خُلق القرآن» وأتمنى أن تجيء فرصة لأعرض لكم نبذةً تحليلية عن هذا العمل الضخم مع تقديم احترامي للعمل والكاتب .

أ. د عفيفي عبد الفتاح
نقلا عن مقال باللغة الفرنسية
تعريب أ/ خالد الشرقاوى و أ/ محمد عبد المجيد حمادة

تبرز تفوق الأخلاقية الإسلامية

الذين يعرفون المرحوم الدكتور دراز من خلال كتاباته، وخاصة فلسفة الأخلاق في الإسلام يثبتون له غزارة علمه وأصالة تفكيره وفصاحة بيانه، وقوة دينه وخُلقه.

ولاسيما أصالة التفكير التي مكنته من أن يتقصى مواطن الضعف في كل فلسفة أخلاقية دعا إليها البشر مبرزًا تفوق الأخلاقية الإسلامية عليها جميعًا بالتزامها سبيل الفطرة والسداد الذي لا يعتريه الخطأ.

محمد المجذوب
نقلاً عن كتابه «علماء ومفكرون عرفتهم»
الجزء الأول - دار الإعتصام : القاهرة

يعد محمد عبد الله دراز من أهم رواد البحث في الأخلاق القرآنية، فهو الرائد الذي تبعه عدد كبير في هذا الإتجاه، يشيرون إليه صراحة ويقتبسون منه ويكملون نفس الإتجاه، وتعتبر دراسته «دستور الأخلاق في القرآن» أصدق تعبير عن الإتجاه القرآني في الأخلاق.

أ. د. أحمد عبد الحليم عطية
نقلاً عن كتابه «الأخلاق في الفكر العربي المعاصر»
دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة

تقاريظ الرسالة

١ـ رسالتان دينيتان تنالان شرف القبول الملكي.

٢ـ خطاب وزير المعارف العمومية.

٣ـ خطاب وزير الزراعة.

٤ـ خطاب وزير التجارة والصناعة.

٥ـ خطاب رئيس ديوان جلالة الملك.

الاحد ٢٥ ابريل ١٩٥٢

رسالتان دينيتان تنالان

شرف القبول الملكي السامي

كان حضرة صاحب الفضيلة الدكتور الشيخ محمد عبد الله دراز الاستاذ بكلية أصول الدين وعضو جماعة كبار العلماء قد بعث الى الديوان الملكي برسالتين باللغة الفرنسية احداهما في « حكمة القرآن » والثانية في « التعريف بالقرآن » ملتمسا رفعهما الى مقام حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم .

ولما تولى سعادة رئيس الديوان الملكي بالنيابة رفع الرسالتين الى مقام جلالة الملك نالتا من لدن جلالته كريم القبول

وعلى إثر ذلك ارسل سعادة رئيس الديوان بالنيابة الى حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الازهر الكتاب الاتى ليتولى فضيلته تبليغه الى فضيلة الدكتور دراز وهو :

يسرني ابلاغ فضيلتكم اني تشرفت فرفعت الى مقام حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم النسخة المقدمة من فضيلة الاستاذ الشيخ محمد عبدالله دراز المدرس بكلية أصول الدين بالجامع الازهر الشريف من رسالتيه الفرنسيتين عن « حكمة القرآن » و « التعريف بالقرآن » فنالتا من لدن جلالته حفظه الله أحسن القبول فارجو فضيلتكم التكرم بتبليغ صاحب الرسالتين ذلك مقرونا بالشكر السامي الكريم .

رئيس الديوان الملكي بالنيابة

فبعث فضيلة الاستاذ الاكبر بالكتاب الكريم مقرونا بكتاب التبليغ الاتي الى الدكتور دراز :

سلام الله عليكم ورحمته اما بعد - فيسرني اعظم السرور ان ابعث الى فضيلتكم بصورة من الكتاب الذى أرسله الينا حضرة صاحب السعادة رئيس ديوان جلالة الملك بالنيابة في شأن الرسالتين الفرنسيتين اللتين رفعتموهما الى مقام حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم عن « حكمة القرآن » و « التعريف بالقرآن » .

واني اذ اعبر لفضيلتكم عن عظيم اغتباطي بما نالته هاتان الرسالتان من حسن القبول اهنئكم على هذا العطف السامي واسأل الله تعالى ان يديم توفيقكم الى ما يعلي شأن العلم والدين .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وزارة المعارف العمومية

مكتب الوزير

القاهرة في ٢٢ مايو سنة ١٩٥١

حضرة الدكتور محمد عبد الله دراز

تلقيت نسخة من مؤلفاتكم باللغة الفرنسية عن القرآن الكريم ، وانى اشكر لكم هذه الهدية ، مقدرا ما بذلتم فيها من جهد لتعريف قراء الفرنسية بالاسلام وبكتابه الكريم ، وارجو لكم التوفيق والسداد .

واقبلوا خالص تحيتي ،،

وزير المعارف

وزارة الزراعة

مكتب الوزير

حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الدكتور محمد عبدالله دراز

ابعث الى فضيلتكم بتحية الاسلام تحية طيبة مباركة وبعد فقد تسلمت بيد الغبطة رسالتيك عن ادب القرآن ولو انى لم اقرأهما بعد الا ان ما اعرفه من واسع علم واضعهما وثقتى فى انى ساجد فيهما متعة يدفعنى كل هذا الى المبادرة الى تقديم الشكر العاطر على هذه الهدية الدينية الموفقة .

وانى لعلى ثقة من ان مثل هذا العمل الذى بدأته لابد ملاق ما يستحقه من تقدير وتكريم ممن يعرفون الفرنسية ويودون ان يطلعوا على ما هدف اليه القرآن الكريم من تعاليم هى لخيرى الدنيا والآخرة .

وانى لادعو الله ان يجعل التوفيق حليفك فى كل ما سخرت له قلمك او اعملته فيه خالصا لوجه الله وتأييدا فى النفوس لشريعته .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته "

٤/٦/١٩٥١ .

وزارة التجارة والصناعة

مكتب الوزير

عزيزي فضيلة الدكتور دراز

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد فقد تسلمت بيد الشكر والامتنان النسختين التى اهديتموها الينا عن القرآن الكريم باللغة الفرنسية ·

وانى اذ اقدم لفضيلتكم تهنئتى الخالصة على هذا المجهود العظيم الذى بذلتموه فى اعداد هذه المؤلفات الجليلة الشأن فى الدين الحنيف باللغة الفرنسية انتهز هذه الفرصة فابعث الى فضيلتكم باطيب التحيات واصدق التمنيات ·

وتفضلوا بقبول وافر الاحترام ،

/٦/ ١٩٥١



حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز

تحية طيبة وبعد ، فقد تسلمت مؤلفاتكم القيمــــــــة عــــن

" La Morale Du Koran "

" Initiation Au Koran "

والمحاضرة التي القيتموها عن الربا في نظر القانون الاسلامي .

واني ابعث اليكم بخالص الشكر على جميع هذه الكتب التي يسرني ان اطالعها بكل ما تستحقه من عناية .

وتقبلوا خالص تحياتي واصدق تمنياتي ،

رئيس ديوان جلالة الملك

٢٣ يناير سنة ١٩٥٢

مراجع البحث

أولاً : المخطوطات:

١- توزيع رسالة «دستور الأخلاق في القرآن» في مكتبات أوروبا وآسيا وأمريكا - وهو بيانٌ مخطوطٌ بخط اليد للدكتور محمد عبد الله دراز (عثرنا عليه ضمن أوراقه الخاصة).

٢- تقرير مخطوط عن طبع النص الفرنسيّ للرسالة مرفوعٌ إلى شيخ الأزهر بتاريخ ١٩٥٠ .

٣- تقرير عن مؤتمر «نيس» والمهمات التي ندب لها الدكتور دراز في شهر يوليو ١٩٥١ مندوبًا عن الأزهر الشريف .

٤- تقاريظ الرسالة (عثرنا عليها ضمن أوراق الشيخ الخاصة) .

ثانيًا: المراجع العامة:

١- أبو الحسن الندوي - الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية - دار الأنصار - القاهرة .

٢- السيد محمد بدوي - الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع - دار المعارف سنة١٩٨٠.

٣- أنور الجندي - أعلام الإسلام - دار الإعتصام - الطبعة الأولى .

٤- د. أحمد عبد الرحمن - خُلق القرآن المبادئ والمعوقات الطبعة الأولى ١٩٨٦م.

- الفضائل الخلقية في الإسلام - دار الوفاء المنصورة -الطبعة الأولى.

٥- د. عبد الحليم عويس - ثوابت ضرورية في فقه الصحوة الإسلامية دار الصحوة - القاهرة .

٦ـ الشيخ عبد الله المراغي ـ مجلة الأزهر عدد جمادى الآخرة ١٣٧١هـ .

٧ـ عصمت عبد الجواد (صحفي) الأزهر في بلد النور ـ حوارٌ صحفي مع الدكتور دراز عقب عودته من باريس ـ الأهرام بدون تاريخ .

٨ـ الأستاذ محمد المجذوب ـ علماء ومفكرون عرفتهم ـ الجزء الأول – دار الإعتصام ـ الطبعة الأولى .

٩ـ د/ محمد البيومي عبد الواحد

محمد عبد الله دراز ومنهجه في البحث الخلقي

رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية أصول الدين بالقاهرة ـ رقم ٢٠٦ .

١٠ـ محمد إبراهيم الفيومي ـ مقال دستور الأخلاق في القرآن بمجلة الأزهر عدد رمضان ١٤٢١هـ .

١١ـ مالك بن نبي ـ الظاهرة القرآنية ـ المكتب الإسلامي .

١٢ـ د. محمد رجب البيومي

النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين الجزء ـ مجمع البحوث الإسلامية.

١٣ـ محمد عبد الله السمان ـ مقال ـ الفكر الإسلامي إلى أين؟

ـ مجلة الأمة القطرية عدد ٤ ربيع الآخر ١٤٠٤هـ ودراسته عن الرسالة ـ مجلة الوعي الإسلامي عدد ١١٨ شوال ١٣٩٤هـ .

١٤ـ د. محمد عبد الله دراز

دستور الأخلاق في القرآن ـ مؤسسة الرسالة ترجمة د/ عبد الصبور شاهين ـ الطبعة العاشرة .

١٥- مدخل إلى القرآن الكريم - دار القلم.

١٦- مختصر دستور الأخلاق -إختصار وترجمة - محمد عبد العظيم علي - دار الدعوة الإسكندرية .

١٧- النبأ العظيم - دار القلم .

١٨- د. مصطفى محمد حلمى

الأخلاق بين الفلاسفة وحكماء الإسلام - دار الثقافة العربية - القاهرة .

الدوريات:

١- مجلة الأزهر .

٢- مجلة الأمة القطرية .

٣- مجلة حضارة الإسلام الدمشقية .

٤- مجلة الوعي الإسلامي الكويتية .

الصحف:

١- صحيفة الأهرام .

٢- صحيفة الأخبار .

٣- صحيفة الشعب .

٤- صحيفة آفاق عربية .

مقابلات شخصية :

١- مقابلات مع الأستاذ الدكتور - السيد محمد بدوي .

تمت المقابلات بمنزله (سان استيفانوا - الإسكندرية) .

٢ـ مقـابلات مع الدكتور/ عبد الستار فتـح الله سعيد تمـت المقابلات بمنزلـه بمدينة نصر ـ القاهرة .

٣ـ مقـابلات مع سـعادة السـفير/ فتحـي محمد عبـد الله دراز نجل الشـيخ تمت المقابلات بمنزله بمصر الجديدة القاهرة.

٤ـ مقابلة مع الدكتور/ سعيد محمد عبد الله دراز تمت المقابلة بمنزله بمصر الجديدة ـ القاهرة .

٥ـ مقابلة مع الأستاذ/ محسـن محمد عبد الله دراز تمت المقابلة بمنزل الدكتور السيد محمد بدوي الاسكندرية .

٦ـ مقابلـة مع الدكتـور محمد أبو الأنوار تمـت المقابلـة بمكتب الدكتور كمـال على بشر – كلية دار العلوم بالقاهرة .

فهرست الموضوعات

الموضـــــــوع	رقم الصفحة